



مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية

اسم المقال: الأفكار الفلسفية عند برديصان محاولة لاكتشاف فيلسوف سوري مجهول

اسم الكاتب: د. علي محمد اسبر

رابط ثابت: <https://political-encyclopedia.org/library/2903>

تاريخ الاسترداد: 2025/06/18 17:23 +03

الموسوعة السياسية هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.

لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسية – Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسية – Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام

المتاحة على الموقع <https://political-encyclopedia.org/terms-of-use>

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسية
مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكرية ومتطلبات رخصة المنشاع الإبداعي التي يتضمن المقال تحتتها.



الأفكار الفلسفية عند بريديسان محاولة لاكتشاف فيلسوف سوري مجهول

د. علي محمد اسبر *

الملخص

هدف هذا البحث إلى الكشف عن حقيقة فكر الفيلسوف السوري المجهول بريديسان الرُّهَاوِي، إزاء القراءات غير العلمية التي قدمت صورة غير دقيقة عنه، وكان ذلك الكشف على أساس محاولة تبيان أنَّ بريديسان امتاز برؤية فلسفية عميقة تجلَّت في إثارته لمشكلة حرية الإرادة الإنسانية، وإيجاده لحلول فيما يتعلق بموقع الإنسان في العالم ووظيفته فيه، إضافةً إلى تحليل رأي بريديسان في تغيير الطبيعة الإنسانية ورفضه لأي ماهيَّة إنسانية ثابتة تفرض حضورها على الإنسان فتمنَّعه من الاتجاه نحو المبادرة وإعادة تكوين واقعه، فاستطاع بريديسان على أساس ذلك إيضاح أنَّ الإنسان موجود طبيعياً تسعى الطبيعة أن تصل به إلى أقصى كمالاته؛ لكنَّ القرآن يحاول هدم ما بنَّه الطبيعة. غير أنَّ بريديسان أكدَ دور حرية الإرادة الإنسانية في مواجهة ضربات الأقدار؛ ذلك من أجل أنَّ بريديسان حاول إثبات مركزيَّة الإنسان في الكون وقدرته على التحكُّم بمصيره الإنساني إلى أقصى حدٍ ممكن.

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الفلسفة.

Bardesan's Philosophical Ideas An attempt to discover an unknown Syrian philosopher

Dr.Ali Mohammad Esber*

Abstract

This research aimed to uncover the truth of the thought of the unknown Syrian philosopher Bardesan-Rahawi, in the face of the unscientific readings that gave an inaccurate picture of him. This revelation was based on an attempt to show that Bardesan had a deep philosophical vision that emerged in raising the problem of freedom of human will and finding solutions in relation to the position and function of man in the world. In addition to analyzing Bardesan's opinion on the changing nature of human being and showing Bardesan's rejection of any constant human essence that imposes its presence on man, it prevents him from moving towards initiative and reconfiguring his reality. On this basis, Bardesan was able to show that man exists naturally and that nature tries to reach this human being to its utmost perfection. However, Bardesan emphasized the role of freedom of human will in the face of predestination, in order that Bardesan tried to prove the centrality of man in the universe and his ability to control his human destiny to the possible maximum extent.

* Department of Philosophy - Faculty of human Sciences and Arts - Damascus university - Syria.

المقدمة:

تعرّض بريديسان الرُّهاوي لاتهامات بالهرطقة والزندقة جاءته من مصادر متباعدة وفي عصور تاريخية مختلفة، وقد تلّوّنت شخصية بريديسان بتلوّن المتحدثين عنه من مؤرخين وكُتاب سير وباحثين، وظلَّ فكره الحقيقي مخفياً، وسادت عوضاً عن ذلك رؤية مُضللة عن هذا الفيلسوف نأتُّ به عن أنْ يُصنف في عدد الفلسفه المحترفين الذين لا يطلبون إلا معرفة الحقيقة ذاتها، لذلك كان هذا البحث بمثابة محاولة لإلقاء ضوء على شخصية بريديسان وفلسفته من أجل تبديد سوء الفهم الذي تعرض له.

هذا، ومن أجل تحقيق هذه الغاية، بدأ البحث في استقصاء الأصول التاريخية لنشأة بريديسان وتحديد الإطار الحضاري الذي عاش فيه في أبعاده الجغرافية والسياسية والثقافية، ثم انتقل البحث لتبيّان كيفية انّهاء بريديسان بالهرطقة في تاريخ الثقافة السريانية، من أجل كشف تهافت هذه الاتهامات وتناقض الآراء التي قيلت عنه؛ ثم اتجه البحث إلى توضيح أسباب رمي بريديسان بالزندقة في تاريخ الثقافة الإسلامية، إذ نظر إليه في هذه الثقافة نفسها على أنه من أصحاب الاثنين، أي من القائلين بأصلين للعالم: النور والظلمة، لكن كشف البحث أنَّ هذه النظرة لا يوجد أي أساس صحيح لها؛ ثم كان غرض البحث هو تحليل فكرة تقديم بريديسان بصفته أديباً يدعو إلى فكر عقديٍّ بعينه دون وجود أي دلائل على ذلك؛ وجاء أخيراً الجزء الرئيس من البحث بهدف تحليل كتاب بريديسان "شارع البلدان"، إذ على أساس إعادة النظر في هذا الكتاب نفسه نتم الوصول إلى نتائج يمكن أن تُغيّر الرؤية السائدّة عن بريديسان، ويرجح أن تُنسح في المجال لتصنيفه في دائرة الفلسفه العرب السوريين قبل الإسلام، بما يُسمّه في بحوث لاحقة في كشف الحلقة المفقودة بين الفلسفه اليونانية والفلسفه العربية-الإسلامية.

وانتهى البحث إلى جملة من النتائج، لم يكن ممكناً الوصول إليها إلا على أساس الاستناد إلى اقتباسات يمكن أن تكون في بعض الحالات طويلة نسبياً، إلا أنَّ الضرورة القصوى في البحث اقتضتها، بسبب الطابع التوثيقى الذي اتسم به البحث بقصد الحفاظ على الأمانة العلمية والدقّة في العرض وسلامة منهجه إرجاع الأفكار والمعلومات والأراء إلى مطانها.

الأصول التاريخية لنشأة بريديسان:

ولد بريديسان Bardaisan عام 154 م في مدينة الرُّها السورية الواقعة شمال منطقة الجزيرة السورية، وتسمى في اللغة اليونانية إديسا Edessa، لكنها خاضعة الآن للاحتلال التركي، ويسمّيها الأتراك "شانلي أورفة"، وسمّي بريديسان بسبب أنَّ أمّه ولدته على ضفة

نهر ديسان river Daisan الذي يُعد رافداً من روافد نهر الخابور، ويمر عبر الرها فسمته تيمناً بذلك النهر ابن النهر، لأن لفظة "Bar" تعني في اللغة الآرامية ابن، ولفظة "ديسان" تعني "نهر"، فيشير اسمه "ابن النهر"، وهذا هو معنى اسم برديسان في اللغة الآرامية¹.

ويبدو أن برديسان كان قد تحدّر من أسرة نبيلة، إذ إن التعليم الأرستقراطي الذي تلقاه يدل على عراقة محتده، فقد احتل مكانة مرموقة بين أبناء الرها، وقد قضى برديسان معظم أيام حياته في بلاط الملك المتحالف مع الفرزقين أبجر الثامن الكبير the Parthian King Abgar VIII the Great (214-179 م)، وأمضى أيامه كرجل وطني مخلصٍ لبلده².

والحقيقة أن هناك معلومة تاريخية على درجة عالية من القيمة والأهمية تتعلق بـ"أبجر الثامن الكبير" ملك الرها، ذلك أن سلالة الأباجرة التي يتحدر منها ترجع إلى أصول عربية، إذ إن الرها وإن كانت تتموضع جغرافياً في بلاد ما بين النهرين، إلا أن هناك حضوراً قوياً للعرب فيها.

إذ "يجب إدراج بلاد ما بين النهرين Mesopotamia في تعداد المقاطعات الحدودية التي شكلت المنطقة العربية في الشرق. ورغم انفصالها عن شبه الجزيرة العربية the Arabian Peninsula، إلا أن العنصر العربي فيها كان قوياً للغاية، سواء أكان ذلك في السهوب، أم في المراكز الحضرية التي تحكمها السلالات العربية. وهكذا عندما أنهى الرومان الحكم الذاتي للأباجرة العرب في الرها autonomous rule of the Arab in Edessa عام 244 م، اكتسبوا وحكموا مباشرةً أراضي كانت تحت حكم السلالات العربية لفرون حيث كان العنصر العربي هو المهيمن على جانبي نهر الخابور".³ RiverKhabur

والحقيقة أن هذه المعلومة القيمة تُفيد في أن برديسان علاوة على أنه ولد في الرها تلك المدينة السورية، عاش في بلاط ملكٍ عربيٍ هو أبجر الثامن الكبير، ولا يُستبعد بل

¹-See: Andrade, Nathanael, Bardaisan of Edessa and Memories of Christian Persecution in the Near East, Institute of Classical Studies University of London, 2019,pp.86-105.

²-Denzey, Nicola, Bardaisan Of Edessa, in: A companion to Second-Century Christian "Heretics". Edited AnttiMarjanen& Petri Luomanen, Brill, Leiden.Boston,2005, p.163.

³-Shahid, Irvan, Romans And The Arabs: A Prolegomenon To The Study Of Byzantium And The Arabs, Dumbarton Oaks Research library And Collection Washington,D.C,1984, P.16.

يرجح أن يكون بريديسان نفسه من أصول عربية، لكن حتى الآن لا تتوافر دلائل قاطعة في هذا الاتجاه. والحقيقة أن تكون الثقافة المنتشرة في الرُّهَا آرامية أو يونانية أو رومانية، لا يمنع على الإطلاق وجود تأثيرات ثقافية عربية في المدن التي حكمتها سلالات الملوك العرب في الشرق بعامة وفي بلاد الرافدين خاصة. ذلك أنه " عبر الفرات امتلك الأباجرة العرب Euphrat the Arab Abgarids أنفسهم منذ عام 130 قبل الميلاد أديسا السلوقيَّة Seleucid of Edessa (=الرُّهَا) واستمروا بصفتهم حاكماً لها حتى منتصف القرن الثالث الميلادي".⁴

وتشير هذه الدلائل إلى أنَّ بريديسان نشأ في بلاد عربية، ولا شك في أنَّ وصف أديسا بالسلوقيَّة يرجع إلى أنَّ أحد قواد الإسكندر المقدوني الكبير وهو سلوقوسنيكانتور (358 ق.م.-281 ق.م.) قام باحتلال الرُّهَا وسمَّاها أديسا، وهي أصلًا مدينة عربية، فاستطاع الأباجرة ببراعتهم السياسية أن يستعيدها بعد تحالف مع الفربين (أباطرة إيران القديمة) ودارت أيام الحرب والسلام سجالًا بينهم وبين الرومان إلى أن ضاعت الرُّهَا من أيديهم كما ضاعت مدن عربية أخرى كانت زاهرة بمختلف أنواع الازدهار.

والحقيقة أنَّ "شكلاً عالياً من أشكال الثقافة الماديَّة" كان قد تطور في هذه المدن العربية، والأمر الأكثر أهميَّة في هذا السياق هو ظهور حياة أدبية وفكريَّة قوية فيها. وقد أسهمت السلالات العربية the Arab dynasts التي كانت تتمتع بدرجة معينة من الاستقلال –إذ كان الملوك فيها تابعين لخلفاء كبار قبل ضمّ روما لممالكهم– في الحياة الثقافية في الشرق عن طريق جعل مدنهم مراكز للتراث الثقافي المهمة.

ويمكن ذكر ثلاث من هذه السلالات العربية هي: سمسيسيراموس في إميسا (حمص)=Abgarids of Emesa)، والاباجرة في أديسا (الرُّهَا)، وعائلة أدينة في بالميرا (=تدمر) Edessa، وعائلة أدينة في بالميرا (=تدمر) Odenathus of Palmyra. ذلك أنَّ جوليا دومنة رعت بابينيان*، وأوليبيان Papinian**، وديوجين لارتي Diogenes Laertius***،

⁴-Shahid, Irvan, Romans And The Arabs: A Prolegomenon To The Study Of Byzantium And The Arabs, 1984, p.154.

* عالم قانون من مواليد حمص مات نحو 212 م.

** عالم قانون من مواليد صور مات نحو عام 228 م.

*** مؤرخ للفلسفة مات نحو عام 240.

وديو كاسيوس Dio^{***}، وفليوستراتوس Philostratus^{**}، وجالينوس Galen^{****}؛ وأاجر الثامن عُنْيَ ببرديصان؛ وزنوبيا Zenobia اهتمت بلونجينوس Longinus^{*****}. ولا شك في أنَّ لهذه المعلومات السابقة بما فيها نشأة بردیصان في مدينة سورية تحكمها سلالة عربية أهمية كبيرة في إعادة النظر في تاريخ الفلسفة العربية قبل الإسلام بعامة وفي فلسفة بردیصان بخاصة، من أجل إيجاد الحلقة المفقودة بين الفلسفة اليونانية والفلسفة العربية الإسلامية.

اتهام بردیصان بالهرطقة في الثقافة المسيحية:

تعرَّض بردیصان لاتهامات تسببت في تحويل فكره على نحو تام، إذ قدّمت أفكاره بخلاف مقاصدها الحقيقة، بصفتها أفكاراً مخالفة لتعاليم الدين المسيحي الذي كان سائداً حينئذ في مملكة الرُّها حيث عاش بردیصان.

ويرجح أنَّ الصورة السلبية التي أخذت عن بردیصان بصفته هرطوقاً خارجاً على تعاليم الدين المسيحي ترجع أساساً إلى الملفان مار أفرام السرياني (306-373م)، إذ حكى مار أفرام أنه (برديصان) قال بثلاث ذوات أو طبائع كبار وأربعة كائنات صارت 366 عالماً وكائناً، وأنَّ الذي كلام موسى والأنبياء لم يكن الله بل رئيس الملائكة، وأنَّ مريم العذراء لم تلد جسداً قابلاً الموت، وكذب بالقيمة وزعم بالقضاء والقدر، ووجود آلهة كثيرة، وأنكر قيامة الأجداد⁶. ويتصحّ من تحليل اتهامات مار أفرام لـ"برديصان" أنه يُصنَّف بردیصان في عداد الغنوسيين^{*}، علمًا، أنَّ بردیصان كان قد توفي سنة 222م،

* رجل روماني ومؤرخ له عدة مؤلفات عن تاريخ روما مات نحو 235 م.

** خطيب وفيلسوف سوسيطاني مات نحو 250 م.

*** طبيب مشهور من مواليد مدينة بيرغامون الواقعة في آسيا الصغرى مات عام 216 م.

**** كاسيوس لونجينوس خليب وفيلسوف ناقد من مواليد حمص في سوريا مات عام 270 م.

⁵-Shahid, Irvan, Romans And The Arabs: A Prolegomenon To The Study Of Byzantium And The Arabs, p.154.

⁶- يوسف أبوب، (الأب) برسوم، عبرية مار إفرايم السرياني، المطبعة المارونية، طلب، 1958، ص.ص: 24-25.
* يوجد غنوسيون كثُرٌ منهم باسيليدس الذي يقال: إنه درس في الإسكندرية في أيام الإمبراطورين أدريانوس وأنطونيوس الثاني (117-161م)؛ وهناك أيضاً فالنتينوس وهو ثانٍي الغنوسيين الكبار ولد في مصر، ومات في روما بعد عام 160م؛ وهناك سيمون الساحر بُرز في السامورة وفي رومة على عهد الإمبراطور كلوديوس، لكن هناك شكًا في كونه من الغنوسيين ونجد أيضاً إيسينورس وهو ابن باسيليدس وتلميذه؛ وكذلك إيفانائيوس، ويدُرج بردیصان الراهوي في هذا التصنيف! وقد نشأ "لقالنتينوس" تلاميذ أسسوا مدارستان واحدة في الغرب وأخرى في الشرق: ومن أعلام مدرسة الغرب بطليموس، وهيراقليون، وفلوريثس؛ ومن أعلام مدرسة الشرق أكسينونيُّس، وثينودوش ومرقص. وهناك أيضاً مرقيون، وكذلك مونتاس، وترثيليانوس. ينظر: سليم بسترس، (المطران) كيرلس - الفاخرري، (الأب) حنا - العبسى البولسى، (الأب) جوزيف، تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، 2001، ص.ص: 273-283.

أي قبل ولادة مار أفرام بأربعة وثمانين عاماً، ودون الاستناد إلى آية وثائق أو مخطوطات أو كتابات ترجع إلى بريصان نفسه شريطة أن تكون مُتفقاً على صحتها، إذ لا يمكن قبول إدراج بريصان في "بدعة" الغنوسيَّة، استناداً إلى آراء مار أفرام وحده التي تستند إلى كلام مُرسَل يحتاج إلى إعادة نظر عميقه؛ لذلك لا بدَّ في بداية المطاف من الفحص عن إمكانية انتفاء أو عدم انتفاء بريصان للغنوسيَّة؛ لأنَّ الكشف عن هذه المسألة يُخرج بريصان من دائرة تصنيفه إما بصفته مؤمناً مسيحيًّا لا تشوب إيمانه شائبة، أو بصفته هرطوقاً مبتدعاً داخل الديانة المسيحية، بمعنى: أَنَّه ينبغي استقصاء فكر بريصان الحقيقي.

"الغنوسيون المسيحيون بالإجمال يُؤولون عقائد المسيحية تبعاً لمذهبهم، ويصوغون أساطيرهم بألفاظها. فهم يُقيِّمون الثنائيَّة على ما يزعمون من تعارض بين التوراة والإنجيل، إذ يقولون إنَّ التوراة تصور إلهًا قاسياً جباراً، بينما الإنجيل يكشف لنا عن إله وديع حليم خير للغایة، وذهب باسيليدس إلى أنَّ إله العهد القديم ما هو إلا رئيس الملائكة الأشرار، وألحَّ مرقيون في هذا المعنى وألف كتاباً أسماه "الأضداد" جمع فيه آيات متقابلة في حرفها ليستخرج منها تغاير الإلهين والشريعتين. إله العهد الجديد هو إله الأعلى؛ إله الحق، إله الآب، خالق العالم المعقول، أبو المسيح وإله المسيحيين، وإله العهد القديم صانع العالم المحسوس وإله اليهود عُني بهم وقهَّر أعداءهم من أجْلِه⁷".

ويظهر واضحًا أنَّ الغنوسيين يميِّزون بين الإلهين: إله خالق للعالم المعقول؛ وإله صانع للعالم المحسوس، ويفيد هذا التمييز في أنَّ هدف الغنوسيين قائم في التوجّه نحو إله خالق العالم المعقول، ونكران إله صانع العالم المحسوس، وقد أُسقط الغنوسيون على هذا التمييز نفسه تمييزاً بين إله التوراة وإله الإنجيل، وما يمكن التركيز عليه في هذا الاتجاه على مستوى الفكر الغنوسي هو أنَّ إله خالق العالم المعقول بريء تماماً من خلق العالم المحسوس؛ لذلك تتجلَّ فكرة الخلاص عند الغنوسيين في الانفلات من ربوة العالم المحسوس والتحرر منه نهائياً، ويقتضي هذا التحرر عينه تحرراً من إله صانع العالم المحسوس، من أجل التوجّه نحو إله الحقيقة خالق العالم المعقول، ويكمِّن وجه المفارقة هنا في أنَّ الغنوسيين يميِّزون بين إله أعلى وإله أدنى، يعزون للأول الخير،

⁷ - كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، دون تاريخ، ص.ص: 256-257.

ويعزون للثاني الشر، لأنّه خلق المادة التي تتضمن على الشر. هذا، واتساقاً مع الأدبيات المسيحية وصف الغوسيةن الإله الأعلى أنه الإله الآب.

"أراد الإله الآب أن يقضى على العمل المشؤوم الذي عمله الصانع، وأن يخلص الإنسانية التغسسة التي لم يخلقها، والتي لم تكن تعرفه فنزل المسيح من السماء. لم يولد من العذراء مريم، بل ظهر تام التكوين، وأخذ يعلم ويُعرف الناس بالآب، ولم يتخد له جسماً مادياً، ظهر في شبه جسم، لأنّ المادة رديئة، ولأنّها ملك الصانع"⁸.

والحقيقة أنّ هذه الأفكار قد أثرت على وجه العموم حفيظة آباء الكنيسة، إذ إنّ كلَّ منْ كان يقول بها أو بما يشابهها من أفكار أو آراء كان يُرمى مباشرةً بالهرطقة؛ لكن لا يمكن طرح سؤال ذي أهمية كبيرة في هذا الاتجاه مفاده: أيمكن أن يُرمى بالهرطقة أيّ مفكّر جديد صاحب أفكار جديدة غير مألوفة حتى لو لم يكن غنوسيّاً، أو بالأحرى أيمكن أن يُئمّن بالغنوسيّة من ليس غنوسيّاً أصلًا إذا تجرأ على طرح أفكار مخالفة للايديولوجيا السائدة في زمانه؟

والحقيقة أنّ اتهام بريديسان بالغنوسيّة يُعدّ أمراً مثار جدالٍ ومسألةً غير محسومة، إذ نجد دفاعاً عن بريديسان يورده ادي شير وفق الآتي: "كان بريديسان فصيحاً بارعاً متقناً في الكلام، وألف كتبًا كثيرة. وقد استُخرجت تاليه إلى اليونانية على يد تلاميذه. وكتب ضدّ المرقينيين وغيرهم من الهرطقة. ومقالة في المحاماة عن الديانة النصرانية"⁹.

ويتضح من هذه المعلومة التي أوردها ادي شير أنّ بريديسان لم يكن غنوسيّاً، بل واجه الغنوسيين أنفسهم في كتاباته، بدلالة نقده للمرقينيين، ويعُدّ معروفاً أنّ مرقين أحد أبرز الغنوسيين، وتنسق تعاليمه مع تعاليم النظرية الغنوسيّة إلى العالم، وقد ثُنت مرقين بالهرطوق بسبب أفكاره، إذ إنّ "خطاً مرقين اللاهوتيّ ناجم عن قناعته أنّ إله يسوع المسيح الصالح الرحيم لا يمكن أن يكون هو نفسه إله العهد القديم العادل الذي يقاصر. لذلك رفض العهد القديم وكلّ ما ورد عنه في العهد الجديد. ولم يبق هكذا إلا على إنجيل لوقا حاذفاً منه الفصلين الأولين، وعلى رسائل بولس، ما عدا الرسالة إلى العبرانيين والرسائل الراعوية، محوراً أو حاذفاً منها ما لا يتلاءم ونظريته".¹⁰

⁸-المرجع نفسه، ص: 257.

⁹-شير، أدي (رئيس أساقفة سعد الكلداني الأنطوري)، تاريخ كلدوأثور، المجلد الثاني، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، بيروت، 1913، ص: 21.

¹⁰-سليم بسترس، (المطران) كيرلس، وأخرون، آباء الكنيسة، مرجع سبق ذكره، ص: 281.

كما يتجلّى وجه الغرابة في هذا السياق في الاستناد إلى آراء بريصان لتدعيم وجهات نظر لا هوئية معينة عن انتشار الديانة المسيحية، إذ قال...”شهد بريصان (سنة 196) وترتليانس ومار ديونسيوس الإسكندرى، لأنَّ الفريثين والماديين (أهل بلاد مادى) والعيلاميين آمنوا بال المسيح ونشأوا في بلاد ما بين النهرين عدَّة كنائس مسيحية”¹¹. ”شهد بريصان في كتاب شرائع البلدان الذى صنفه بالسريانية حوالي سنة 190-200 على وجود النصرانية في بلاد بقطريانة وسُعديانة وهما كورتان متجاورتان في بلاد تركستان يسوقهما نهر جيرون أو اوكتُس ويسميهما جغرافيُّو العرب بلاد ما وراء النهر”¹².

ويتضح هنا تماماً أنَّ هناك معلومات متضاربة عن بريصان، فمرة يوصف أنه غنوسيٌّ مبتدع خارج على تعاليم الديانة المسيحية، ومرة ثانية يوصف أنه ضد الغنوسيين وأنَّه محامٌ باع عن البيانة النصرانية، ومرة ثالثة يُشتبه به في مسائل تاريخية دقيقة. كما نجد عرضاً لأفكار بريصان ينأى به عن الغنوسيَّة، ويقدم أفكاره كما لو أنها من صناعة كاهن مسيحيٍ يعبد الكواكب، ”وضع بارديزان-وكان من مدينة إيدس Edesse في منطقة ما بين النهرين-منظومةً ليست غنوسيَّة بالضبط، لأنَّها لا تتضمن نظام الأيونات، بل تنسب نفسها بالأحرى إلى علم التنجيم: الشمس هي الأب، والقمر هو الأم، والأبراج هي كائنات ذكورية أو أنثوية، وقد ولد يسوع تحت برج المشتري وصُلِّب تحت برج المريخ. والله يترك الشرّ يعمل لأنَّه صبور، لكنه سيخلق بعد ستة آلاف سنة عالماً جديداً يتم استبعاد أيٍّ نقص منه”¹³.

والحقيقة أنَّ هذا التقديم لفكرة بريصان لا يُعدُّ دقيقاً وهو بدوره متأثراً بالاتهامات الجزافية التي كانت تُطلق دون أيٍّ تدقيق، فهناك رأي عن بريصان مفاده الآتي: ”يبدو أنَّه كان يميل إلى التنجيم. فيذكر له جرس أسقف العرب كتاباً في ذلك، ولعلَّه درس الفلك والتنجيم في منتج (هيرابوليس). ولنفور الكتبة الكنسيين عادةً من هذا العلم لم يتحملاً عبارات بريصانية مثل (الشمس أبو الحياة، لأنَّ الشمس مذكورة بالسريانية. والقمر أم الحياة، لأنَّ القمر مؤنث)، واتهموا بريصان بالسحر والتضليل. وقال ابن

¹¹- برصوم، أغناطيوسافلام الأول (بطريرك أنطاكيه وسائر المشرق على السريان)، كتاب الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة، المجلد الأول، مطبعة السلام، حمص، 1940، ص: 199.

¹²- المرجع نفسه، ص: 200.

¹³- ويلتر، ج، الهرطقة في المسيحية، ترجمة: جمال سالم، دار الفارابي، بيروت، 2007، ص: 59.

العربي إنَّ برديسان يزعم أنَّ أمَّ الحياة تخلع لباسها وتدخل على أبي الحياة كلَّ شهر لتلدُ أولاًًا يمدُّون العالم السفلي بالنمو والزيادة¹⁴.

والحقيقة أنَّ هذه الآراء لا تستند إلى معلومات دقيقة؛ وإنما ترجع في الواقع بعد تحديد مظاهرها إلى أقوال أوردها ابن العربي وفق الآتي: "...وظهر أيضاً رجل يسمى ابن ديسان لأنَّه ولد على نهر ديسان فوق مدينة الرُّها. وكان يسمى الشمس أبو الحياة* والقمر أم الحياة، وأنَّ في أول كلِّ شهر تخلع أم الحياة النور الذي هو لباسها، وتدخل على أبي الحياة فيجامعاً فتلدُ أولاًًا يمدُّون العالم السفلي بالنمو والزيادة".¹⁵

إذن، هنا نحن إزاء شخصيات متعددة تم إضافتها على برديسان، إذ يوصف مرَّةً أنه غنوسي، ومرةً ثانيةً أنه مسيحيٌ منافق عن العقيدة، ومرةً ثالثةً أنه منجمٌ وساحر، ومرةً رابعةً أنه شاهد صادق في ما يتعلق بتاريخ الكنيسة.

رمي برديسان بالزنقة في الثقافة الإسلامية:

لا شك في أنَّ هذه التوصيفات لفكر برديسان لا يمكن أن تكون ذات طابع علمي، إذ إنَّها تستند إلى أقاويل؛ لكن للأسف لم تشفع هذه الأقاويل في تاريخ الثقافة السريانية المسيحية فقط، بل انتقلت إلى الثقافة الإسلامية.

والحقيقة أنَّ من بين أقدم النصوص التي تتحدث عن الديسانية في تاريخ الثقافة الإسلامية نجد نصاً أورده أبو منصور الماتريدي المتوفى سنة 944 م في كتابه التوحيد، إذ يبيّن فيه أنَّ "قول الديسانية مثل قول المناينة في الأصل، لكنهم قالوا: النور بياض كلَّه، والظلمة سواد كلَّها، والنور حيٌّ، هو الذي مازج الظلمة وهي ميتة، لما وجد من خشونتها في الجهة التي تلقاء، فأراد المازاجة ليثير تبيراً يُلْين.."¹⁶

والحقيقة أنَّ هذا النص لا يقدِّم أية معلومات حقيقة عن برديسان، وإنما معلومات غير دقيقة ويمكن أن تكون ملفقة، وإيراد هذه المعلومات نفسها هنا يدلُّ على مدى سوء الفهم الذي تعرض له برديسان، ويسمِّي أيضاً في تأكيد ضرورة إعادة النظر في حقيقة تفكيره.

¹⁴-حي، يوسف، كنيسة المشرق 1 الفجر الأصيل، دون ذكر لدار نشر، بغداد، 1988، ص: 235.

* الصواب: أبو الحياة.

¹⁵-ابن العربي، غرغوريوسالمطي، تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت، دون تاريخ، ص: 74.

¹⁶-الماتريدي السمرقندى، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود، كتاب التوحيد، حققه وقدم له: فتح الله خليف، دار المشرق، بيروت، 1986، ص: 163.

ونعثر على نص آخر للمسعودي المتوفى سنة 956م أورده في كتابه التبيه والإشراف في معرض كلامه على الطبقة الأولى من ملوك الروم: "...الثامن عشر مرسس ويسمى أوريلىوس قيسار ملك تسع عشرة سنة وفي ملكه أظهر ابر ديسان مقالته وكان أسفقاً للرها من بلاد الجزيرة وإليه تضاف الديسانية من أصحاب الاثنين وتقسيم ابر ديسان وهي كلمة سريانية ابن النهر والنهر هناك معروف بديسان.." ¹⁷ لكن لم يكن بريسان أسفقاً للرها كما زعم المسعودي، إذ يظهر أنه نظر إلى بريسان بصفته أحد رجالات الكنيسة السريانية، وهذا أمر غير دقيق على المستوى التاريخي*.

كما نجد في هذا الاتجاه نصاً آخر مماثلاً لنص المسعودي أورده ابن النديم المتوفى سنة 990م يتحدث فيه عن الديسانية، إذ يبين ابن النديم في ما يتعلّق بالديسانية أنه "إنما سُمي صاحبهم بريسان باسم نهر ولد عليه وهو قبل ماني والمذهبان قربان بعضهما من بعض وإنما بينهما خلاف في اختلاط النور بالظلمة فإنَّ الديسانية اختلفت في ذلك على فرقتين فرقه زعمت أنَّ النور خالط الظلمة باختيار منه ليصلحها فلما حصل فيها ورام الخروج عنها امتنع ذلك عليه، وفرقه زعمت أنَّ النور أراد أن يرفع الظلمة عنه لما أحس بخشونتها ونتها شابكها بغير اختياره، ومثال ذلك أنَّ الإنسان إذا أراد أن يرفع عنه شيئاً ذا شطايا محددة دخلت فيه فكلَّ ما دفعها ازدادت ولوجاً فيه وزعم ابن ديسان أنَّ النور جنس واحد والظلمة جنس واحد، وزعم بعض الديسانية أنَّ الظلمة

¹⁷-المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، كتاب التبيه والإشراف، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبعة بربيل 1893، ص: 130.

* لكن في الحقيقة يورد المسعودي معلومات بحاجة إلى تحليل، إذ إنَّ الإمبراطور الروماني ماركوس أوريلىوس (وفقاً لتسمية المسعودي: مرسس ويسمى أوريلىوس قيسار)، ولد سنة 121م ومات سنة 180م، وفلاً حضرت أجزاء من سوريا لحكم هذا الإمبراطور الروماني الذي كان مصنفاً أيضاً في عداد الفلسفه الرواقيين، وكان بريسان قد ولد سنة 154م ومات سنة 222م، أي عندما مات ماركوس أوريلىوس كان بريسان يبلغ من العمر 26 عاماً، وهذا يعني أنه عاصره فعلاً؛ لكن هناك معلومة مهمة تتعلق بصلة بريسان بـ"ماركوس أوريلىوس" أوردها وليم كورينتون. إذ يعود الفضل في اكتشاف كتاب بريسان الوحيد شرائع البلدان إلى رجل الدين والمستشرق الإنكليزي وليم كورينتون William Cureton 1808-1864م، وقد كان كورينتون معيناً بالدراسات السريانية في أفق اهتمامه بتاريخ أصول الديانة المسيحية، وجاء اكتشافه لكتاب بريسان في هذا المنحى. والحقيقة أنَّ كورينتون نفسه يورد معلومات ذات أهمية كبيرة في ما يتعلق بهذا الكتاب، إذ قال في معرض تقديره له مطبوعاً للمرة الأولى إنَّ بحث بريسان عن القرآن قيل: إنه تم توجيهه إلى الإمبراطور ماركوس أنطونينوس المعروف باسم ماركوس أوريلىوس، ورغم اكمال الكتاب نفسه تماماً، فإننا لا نجد آية إشارة تدل على أنه تم تأليفه من أجل هذه الغاية". وبفهم من كلام كورينتون هنا أنَّ كتاب شرائع البلدان (=كتاب القرآن، لأنَّ موضوعه الرئيس القرآن) لم يكن موجهاً إلى الإمبراطور الروماني ماركوس أوريلىوس، وأنَّ حيبثيات تأليف بريسان لهذا الكتاب مختلفة تماماً.

أصل النور، وذكر أنَّ النور حيَ حسَاس عالم وأنَّ الظلمة بضد ذلك عاميَّة غير حاسَّة ولا عالمة فتكارها وأصحاب بريديسان¹⁸.

والحقيقة أنَّ هذه المعلومات التي يوردها ابن النديم لا تمت إلى بريديسان بصلة سوى معلومة واحدة منها، وهي أنَّ بريديسان سُمِّي باسم النهر المعروف بنهر ديسان، أما باقي المعلومات التي أوردها ابن النديم فهي مغلوطة تماماً، فلم يُعرف عن بريديسان البتة، أنه كان من أصحاب الاثنين، أي من القائلين بثنائية النور والظلمة المتحدرة من التأثيرات الفارسية القديمة بعامة، والزرادشتية منها بخاصة، ووجدت إعادة إحياء لها في الديانة المانوية التي أسسها ماني بن فاتك المولود في بابل في القرن الثالث الميلادي، وبهذا اختزلت أفكار بريديسان لتصير ضرباً من المفاضلة بين النور والظلمة من جهة كونهما أصلين للعالم.

ونجد الشهروستاني ينسج على المنوال نفسه، إذ عندما يتحدث عن الديصانية لا يتتجاوز حديثه معلومات شائعة مغلوطة لا تدل على حقيقة فكر بريديسان، إذ يؤكد أنَّ "الديصانية أصحاب ديسان. أثبتو أصلين: نوراً، وظلاماً. فالنور يفعل الخير قصداً واختياراً. والظلام يفعل الشر طبعاً واضطراراً. فما كان من خير ونفع، وطيب وحسن؛ فمن النور. وما كان من شرّ وضرر، ونزن، وقبح؛ فمن الظلام"¹⁹.

ويظهر واضحاً أنَّ هناك تصوراً أحادي النظرة عن بريديسان في تاريخ الثقافة الإسلامية يقوم على ترسیخ فكره بصفته فكراً مكرساً للزنقة، أي أنه صاحب فكر مُصنف ضمن أفكار القائلين بالثنائية، أي بثنائية النور والظلمة؛ لذلك يتبيَّن أنَّ هناك خطأ واضحاً بين أفكار بريديسان وأفكار ماني؛ بل إنَّ علي سامي النشار يؤكِّد دون الاستناد إلى أدلة قاطعة، أنَّ "أول مثال للغنوصية الثانية هو مثال الديصانية، نسبة إلى مؤسِّسها ديسان أو بريديسان وقد ظهر ديسان قبل ماني ومهد له"²⁰.

لا شك في أنَّ هذه المعلومات التي أخذ بها المفكرون المسلمين من قدماء ومحدثين ترجع إلى مؤثِّرات سريانية مسيحية، أي ترجع أساساً إلى اتهام آباء الكنيسة السريانية لـ"برديسان" بالهرطقة، لذلك ظهر إلى بريديسان في تاريخ الثقافة الإسلامية بصفته

¹⁸- ابن النديم، الفهرست، نشرة غوستاف فلوجل، لايبزغ، 1871، ص.ص: 338-339.

¹⁹- الشهروستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد، الميل والنحل، المجلد الأول، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت-لبنان، دون تاريخ، ص: 250.

²⁰- النشار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، الجزء الأول، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1966، ص: 205.

مؤسسًا لفرقة مبتدعة ضالة؛ لكن ظهر نوع من التردد عند علي سامي النشار، فأورد المعلومات الآتية: "...يرى بعض الباحثين أنَّ ديصان نفسه لم يكن غنوسيًا واضحًا. ولكن من الثابت أنَّ هرمنيوس بن ديصان^{*}، رئيس الفرقة بعد أبيه، قد أدخل مزيجًا من الغنوسيَّة والأفلاطونية والرواقية في المذهب، وتقابل هذا المزيج الديصاني مع شيوخ الإمامية من أمثال هشام بن الحكم، والمعترضة من أمثال النظام.. وحدث تبادل الأسلحة، فأخذوا من الديصانية خلال هجماتهم عليها".²¹

ويتبين من عبارة النشار التي يقول فيها: "يرى بعض الباحثين أنَّ ديصان نفسه لم يكن غنوسيًا واضحًا"، أنه لم يستقصِّ أفكار بريديصان ليتأكد إن كان غنوسيًّا فعلاً أو أنَّ الغنوسيَّة ثُمة أُلصقت به؛ بل اكتفى النشار بالإحالة إلى هرمنيوس بن بريديصان، ليؤكد غنوسيَّة الابن في مقابل التشكك في غنوسيَّة الأب.

غير أنَّ أغناطيوس أفرام الأول برصوم كان قد أكد أنَّ "ما وصل إلينا من أناشيد هذا الملفان (=مار أفرام)، يُفصح باسم بريديصان لا باسم ابنه، ولم يبق من نشائد المبتدع سوى خمسة أبيات في كتاب لثاودورس ابن كوني من كتبة القرن السابع".²² وهذا يدل على مشكلات كبيرة في دقة المعلومات الواردة عن العلاقة بين مار أفرام وبريديصان من جهة، ومار أفرام وهرمنيوس من جهة أخرى!

لكن، الغريب أيضًا في الأمر أنَّ علي سامي النشار كان قد قال "من الثابت" أنَّ هرمنيوس غنوسيَّ، ليس هذا فحسب، بل بعد أن قال كما ورد سابقًا .. وتقابل هذا المزيج الديصاني مع شيوخ الإمامية من أمثال هشام بن الحكم، والمعترضة من أمثال النظام.. وحدث تبادل الأسلحة، فأخذوا من الديصانية خلال هجماتهم عليها"، رجع عن رأيه في الجزء الثاني من كتابه نفسه، أعني "نشأة الفكر الفلسفِي في الإسلام، إذ أوضح بصدق هشام بن الحكم الآتي: "تأتى إلى قصة اتهامه بالشُّوَيْه والملاحدة. وهذه القصة وضعها المعترضة. فيتهمه الخياط بأنه كان يعرف بقول الديصانية وبصحبة أبي شاكر الديصاني، وأنَّ تجسيم هشام بن الحكم مأخوذ من الديصانية. ثم يذكر أيضًا مجادلات هشام بن الحكم وعلى بن ميمون والسكاك مع أبي الهذيل وانقطعهم ويشير ثانيةً إلى صلة

*يقصد النشار أنه كان لـ"بريديصان" ابن يدعى هرمنيوس هو الذي تولَّ زعامة الفرقة الديصانية بعد والده، واتجه بها نحو الغنوسيَّة.

²¹- المرجع نفسه، ص: 206.

²²- أفرام الأول برصوم، أغناطيوس (بطيريك أنطاكيَّة وسائر المشرق)، اللولو المتنور في تاريخ العلوم والآداب السريانية، قدم له ونشره (المطران) غريغوريوس يوحنا إبراهيم-متروبوليَّة حلب، دار ماردين، حلب، ط٦، 1996، ص: 192.

هؤلاء الشيعة بالديصانية-أبي شاكر والنعمان وابن طالوت، وهذه أخبار غير قائمة على أساس علمي، فقدت تعوزت الفرق المختلفة نيز بعضها ببعض بالاتصال والأخذ عن الشاوية والمسيحية واليهودية. إنّ هشام بن الحكم كان عدواً للشوية جاهدها أشدّ جهاد وكتب المصنفات المختلفة... ينماشها وبهاجمها أشدّ هجوم²³.

ويظهر، بناءً على هذه المعلومات المستندة إلى نصوص واضحة التفيف، أنّ بريديسان كان عرضاً لحملة منظمة من الهجوم الندي العنيف؛ ذلك في التقافتين السريانية المسيحية والعربية الإسلامية؛ لكن يمكن تأكيد أنّ فكر بريديسان الذي قدم في هاتين التقافتين هو فكر بريديسان المنحول وليس فكره الحقيقي.

تصویر بريديسان بصفته أدبياً سريانياً :

ظهرت صورة جديدة عن "برديسان" نجده فيها مُصنفاً بصفته أحد أهم أعمال الأدب السرياني، وبعد أن كانت كتاباته، نثراً أو شعراً موضع شجب من قبل رجال الدين المسيحيين من السريان، أصبح الآن مثار إعجاب المعنيين بالأدب السرياني، إذ حاولوا تقديمها لا بصفتها هرطوقاً خارجاً على تعاليم الكنيسة، بل بصفتها أدبياً المعيناً أو داعية يستحق الاهتمام والقدير والعناية.

إذ يؤكّد مراد كامل في هذا الاتجاه: "رأينا الرّهـا لم تؤدي أي دور رئيس في تاريخ الأدب السرياني حتى أواخر القرن الثاني، وأنّ حذيب هي التي قامت بالعبء كله في هذه الفترة، فلما ظهر ابن ديسان بدأت الرّهـا تأخذ مكانها في الأدب السرياني وتضاءل شأن حذيب شيئاً فشيئاً، فقد كان ابن ديسان ذا أهمية كبيرة للرّهـا وأصبحت بفضله مركز المسيحية الشرقية، فقد كان الكاتب السرياني الفذ والشاعر الموهوب الذي تغنى السريان بشعره".²⁴

والحقيقة أنّ عَدّ بريديسان أدبياً سريانياً يدعو إلى المسيحية أمرٌ بحاجة إلى تدقّق، لأنّ العثور على بعض مؤلفاته باللغة السريانية لا يحسم هذه المسألة، كما أنّ اللغة الآرامية التي تعدّ أصلّاً للسريانية تتزعّ عن بريديسان أيّ صفة سريانية بحتة تحمل طابعاً دينياً، علاوة على ذلك لا يمكن أن تدرج طريقة تفكير بريديسان في تاريخ الأدب

²³-علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفـي في الإسلام، الجزء الثاني، نشأة التشـيـع وتطورـه، دار المعارف، القاهرة، طـ4، 1969، ص: 223.

²⁴-كامـل، مراد، وأخـرون، تاريخ الأدب السريـاني من نشأـته إلى العـصر الحـاضـر، دار الثقـافة للـنشر والتـوزـيع، القاهرة، 1987، ص: 80.

السرياني، بل في تاريخ الفلسفة العربية القديمة ما قبل الإسلام، كما سيتبين عند تحليل أفكاره الواردة في كتاب شرائع البلدان.

إذن، بردیسان ليس أدبياً سريانياً، لكن، كما قال رینان Renan منذ أمد بعيد، ومثلاً كرر ولیم رایت William Wright في مستهل كتابه موجز تاريخ الأدب السرياني: ينتسب السريان بسمة معينة هي المقدرة المتوسطة mediocrity. لم يدعوا لا في الحرب ولا في الفنون ولا في العلوم. لقد افقرروا إلى النيران الشعرية للعبرانيين القدماء والعرب. لكن كانوا مناسبين كفايةً كيما يكونوا تلاميذ للإغريق، لقد استوعبوا واستنسخوا التراث الإغريقي؛ لكن أضافوا إليه القليل أو بالأحرى لم يُضيفوا إليه شيئاً من لذتهم. لم يكن لديهم الفارابي، ولا ابن سينا، ولا ابن رشد، في أديرة أديسا Edessa (=الرها)، وقسرين Qinnesrin، ونصيبين Nisibis.²⁵

ولئن كانت آراء كلّ من أرنست رینان ولیم رایت مجحفة بحقّ السريان وغير مقبولة، لكن في الحقيقة يظهر أنّ المعلومات التاريخية التي يتم توظيفها لحساب بردیسان مسيحيّاً سريانياً ملخصاً بعد اتهامه بالهرطقة تحتاج هي كذلك بحاجة إلى إعادة نظر، لأنّها مجحفة بحقّ بردیسان هذا المفكّر الحرّ غير المتذهب، فلا توجد أيّ وثائق سوى بعض المعلومات التاريخية التي تقوم على افتراضات لا يوجد أساس فعليّ لها، قائمة على تأويل عبارات معينة وردت في كتاب بردیسان "شرائع البلدان"، من أجل إرجاعه إلى انتماء بعينه.

ذلك أنه "زَوْدَنَا إِبِيَفَانِيوس بِمَعْلُومَاتِ غَنِيَّةٍ، لَكِنَّ لِيَسْ مِنَ الْحَصَافَةِ الثَّقَةُ بِمَا يَقُولُهُ أَبْ دَمْثُ الْخَلْقِ مِنَ الْكَنْيَسَةِ عَنْ هَرْطُوقَ heretic. إِذْ إِنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ اعْتِاقَ بِرِدِيسَانَ لِلْمَسِيحِيَّةِ يَعْدُ نَتْجَيْةً مِنْ نَتْائِجِ تَحْوِلِ الْمَلَكِ السَّعِيدِ أَبْجَرَ إِلَى مَذَهَبِ جَدِيدٍ هُوَ الْمَسِيحِيَّةُ. وَيَبْدُو عَلَى أَيِّ حَالٍ أَنَّ لَدِيهِ بَعْضُ الْمَعْرِفَةِ بِمَوْلَفَاتِ بِرِدِيسَانَ، إِذْ إِنَّهُ أَخْبَرَنَا عَلَى نَحْوِ صَحِيحٍ تَمَامًا أَنَّهُ كَتَبَ حَوَارًا عَنِ الْمَصِيرِ Fate ضد عَقَائِدَ الْجَبَرِ لِ"عَوِيدَا الْمَنْجَمِ".²⁶ Awida the Astrologer*

²⁵- Burkitt, F. Crawford, Early Eastern Christianity ST. Margaret 's Lectures 1904 On the Syriac-Speaking Church, New York, E.P. Dutton & company, 1904, p.155.

* سوف نجد أنَّ عويدا Awida هو عُيَيْدَة Abida وفقاً للمستشرق ولیام کوریتون مكتشف كتاب شرائع البلدان، وهذا يتاسب تماماً مع كون الرُّها مدينة عربية تنتشر فيها أسماء عربية.

²⁶-Burkitt, F. Crawford, Early Eastern Christianity ST. Margaret 's Lectures 1904 On the Syriac-Speaking Church,p.158.

وهنا يمكن استثمار معلومة ذات أهمية كبيرة، وهي أنَّ بريديسان ترك حواراً فلسفياً أصيلاً، يتعلّق بموضوع فلسفىٰ جوهرىٰ هو المصير. ويدعُم الفكرة نفسها المؤرخ يوسابيوس القيصري: "... إذ كانت الهرطقات تتزايد في إقليم ما بين النهرين ظهر شخص يدعى بارديسانس (=برديسان)، وهو شخص مقدر جداً، وبماهُت ما هُر شخْص السوريانية وقد كتب أبحاثاً ضد أتباع مركيون، وضد غيره من ابتدعوا آراء مختلفة، كتبها بلغته مع مؤلفات أخرى كثيرة. أما تلاميذه - وقد كانوا كثيرين لأنَّه كان مدفوعاً قوياً عن الإيمان - فقد ترجموا هذه المؤلفات من السريانية إلى اليونانية. وبينها أيضاً بحثه القوي عن القضاء والقدر، ومؤلفات أخرى يُقال إنَّه كتبها بمناسبة الاضطهاد الذي حدث وقتئذ. وقد كان في الواقع فيما سبق تابعاً لفالنتينوس، ولكنه إذ رفض تعاليمه فيما بعد وفند أغلب أوهامه، تخيل أنه وصل إلى الآراء السليمة. ولكنه على الرغم من ذلك لم يتطرَّف تماماً من دنس الهرطقة القديمة".²⁷

غير أنَّ المهم في هذا الاتجاه أنَّ إيفانيوس ويوسابيوس أجمعوا على أنَّ بريديسان ترك حواراً عن المصير أو القضاء والقدر، أي أنَّه بحث في موضوع فلسفىٰ أصيل بأسلوب حواريٍّ. لذلك لا بدَّ من استقصاء حقيقة هذا الحوار المنسوب إلى بريديسان، إذ إنَّ اكتشاف أنَّه بالفعل من تأليفه يفتح آفاقاً جديدة لنظرة مختلفة كلَّ الاختلاف عن النظرة السائدة الآن التي تصور بريديسان بصفته أديباً سريانياً يدعو إلى اعتناق دينِ بيته. لأنَّه ما زال الباحثون بعامة ينظرون إلى بريديسان إما بصفته هرطوقاً أو بصفته مؤمناً، إذ نجد كتاباً محدثاً هو أفرام يوسف قد قال عن بريديسان: "أظهرت كتاباته أنَّه كان مسيحيًّا يمتلك إيماناً متيناً".²⁸ لكنَّ سيكشف تحليل كتاب بريديسان حقائق جديدة في هذا الاتجاه.

²⁷- القيصري، يوسابيوس، تاريخ الكنيسة، ترجمة: (القمص) مرقس داود، مكتبة المحبة، القاهرة، ط3، 1998، ص: 191.

²⁸- يوسف، إفرام، الفلاسفة والمترجمون السريان، ترجمة: شمعون كوسا، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010، ص: 44.

كتاب شرائع البلدان:

جاء كتاب شرائع البلدان^{*}، على هيئة حوار شبيه بالحوارات الأفلاطونية، إذ نجد فيه مُحاورين من تقافتين متقاضتين الأول هو عبيدة المنجم والثاني هو برديسان.

ويؤكد كوريتون في هذا الاتجاه "أنَّ اسم الشخص الذي تم تقديمِه على أنَّه قام بتدوين الحوار هو فيليب Philip... إِنَّه حوار يستغرق كلاماً برديسان الجزء الرئيس منه: خطابه موجَّه إلى رفقاء، أحدهم يُسمَّى أفيدا Avida أو عبيدة Abida. وموضوع هذا الحوار هو المصير Fate، ويؤكد العقيدة الدقيقة التي تُشَبَّهُ إلى بحث أو أطروحة برديسان. إذ إنَّ المؤلَّف يقدم نفسه بصفته على دراية تامة بعلم التنجيم الكلداني Chaldean astrology ويعطي دليلاً وافراً على هذا الأمر نفسه. هذا إلى أنَّه تم العثور على المقاطع كافة التي تم اقتباسها من برديسان في هذا المؤلَّف. علاوة على ذلك فإنه مؤلَّف باللغة السريانية مثل سائر أعمال برديسان، على الرغم من أنَّه كان ماهراً أيضاً في اللغة اليونانية، كما أخبرنا إيفيانيوس Epiphanius، ولا يوجد أي شك لدينا في أنَّه يقع الآن بين أيدينا، باللغة الأصلية للمؤلَّف وبالصورة الكاملة لهذا الحوار المشهور عن المصير لبرديسان الذي كُتب نحو منتصف القرن الثاني للميلاد، وكان يُشار إليه كثيراً من قبل كتاب متعددين، لكن لم يكن معروفاً منه حتى الآن سوى جزء يسير نسبياً بالنسبة إلينا"²⁹.

ولا شك في أنَّ دراسة كتاب شرائع البلدان^{*} وفقاً للمعطيات التي يقدمها وليم كوريتون ستنقلب للباحثين ظهر المجنَّ فيما يتعلق بالفهم السائد عن برديسان والديسانية على

*قام (الأب) بولس فغالي بترجمة كتاب شرائع البلدان لبرديسان الرُّهابوي، وقد عَدَ فغالي كتاب شرائع البلدان من "الصنفات المسيحية الأولى"، علاوة على أنَّ فغالي أكد أنَّ برديسان "سرعان ما انجرَ في نظريات مرقون وفالنتين"، والحقيقة أنَّ الباحث لم يُعُول على هذه الترجمة؛ بل استند إلى النص الأصلي الذي نشره ولIAM كوريتون بالإنكليزية. وترجمة فغالي لكتاب شرائع البلدان متاحة على شبكة الإنترنت على الرابط:

<http://www.mediafire.com/jveqhImwmp1Bardesan-laws>

²⁹- SpicilegiumSyriacum: Containing Remains Of Bardesan, Meliton, Ambrose And Mara Bar Serapion. Now First Edited, With An English Translation And Notes, By The Rev. William Cureton, M A. F.R.S. Chaplain In Ordinary Of The Queen, Rector Of St. Margaret 's, And Canon Of Westminster. London: Francis And John Rivington, St. Paul's Churchyard And Waterloo Place. M Dccc Lv. From Preface,pP.iii-iv.

* سوف يستند الباحث إلى مقاطع قد تكون طويلة نسبياً من كتاب شرائع البلدان، ويمكن الهدف من ذلك في عرض طريقة تفكير برديسان على نحو دقيق حرفياً، نظراً لما تعرضت له أفكاره من تشويه، علاوة على أهمية كشف منطق هذه المقاطع النصية في تكوين رؤية مقنعة عن فلسفة برديسان.

أساس أنهم نظروا إليه كهرطق في الثقافة المسيحية وكزعم لديانة ثانية في الثقافة الإسلامية. علاوة على أنَّ اسم الشخص الذي يحاوره بريديسان كما أشار ولIAM كوريتون هو Abida ولا يمكن ترجمة هذا الاسم إلا بـ"عبيدة"، وهذا اسم عربي واضح يتوقف مع كون الرُّهَا عربية وتحكمها سلالة الأباجرة العربية المُختَد.

يبدأ كتاب شرائع البلدان لـ"برديسان الرُّهاوي" على هيئة سرد ذي طابع روائيٍ يتضمن حواراً بين مجموعة من الأشخاص على النحو الآتي: "منذ بضعة أيام صعدنا في السير لزيارة أخيña شمشرام Shemashram. وحينما جاء بريديسان وجدنا هناك؛ ووْقْتَ أَنْ شَعْرَ سَلَامَةَ (شمشرام)، ورأى أَنَّهُ كَانَ مُعَافِيًّا، وَجَهَ إِلَيْنَا السُّؤَالَ الآتِيَّ: مَا الْمَوْضُوعُ الَّذِي كُنْتُمْ تَتَحَدَّثُونَ بِشَأْنِهِ، إِذَا سَمِعْتُ صَوْتَكُمْ مِّنَ الْخَارِجِ بَيْنَمَا كُنْتَ آتِيًّا إِلَيْكُمْ؟ ذَلِكَ أَنَّهُ اعْتَادَ (برديسان)، كَلَمَا وَجَدْنَا نَتَحَدَّثُ عَنْ شَيْءٍ قَبْلَ مجِيئِهِ، أَنْ يَسْأَلَنَا: "مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ؟" حتَّى يَتَمَكَّنَ مِنْ مُشارِكتِنَا فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْمَوْضُوعِ مَوْضِعَ الْبَحْثِ. لَذَلِكَ أَجْبَنَاهُ بِأَنَّهُ هَذَا الرَّجُلُ أَيُّ أَفِيدَا عَبِيدَةَ كَانَ يَقُولُ لَنَا: إِذَا كَانَ اللَّهُ وَاحِدًا، كَمَا قَلَّتْ، وَخَلَقَ بَنِيَ الْإِنْسَانَ، وَشَاءَ أَنْ نَقْعُلُوا مَا أَمْرَكْمُ بِفَعْلِهِ، فَلِمَاذَا لَمْ يَخْلُقْ بَنِيَ الْإِنْسَانَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ أَيُّ غَيْرِ قَابِلِينَ لِالْأَخْطَاءِ، لَكِنْ يَفْعُلُونَ دَائِمًا مَا هُوَ خَيْرٌ؛ مِنْ أَجْلِ هَذَا سَتَحْقِيقِ إِرَادَتِهِ.

قال بريديسان له: أخبرني، يا ولدي عبيدة لماذا نظن أنَّ إله الجميع ليس واحداً، أو أنه واحد، وأنَّه لا يجب أن يتصرف الرجال أنفسهم بقداسة uprightly واستقامة holily؟ قال عبيدة: أنا، يا سيدي وجهت هذه الأسئلة لمن هم في سُنّي نفسه، إذ يمكن أن يقدموا لي الجواب.

قال بريديسان له: إذا كنت ترغب في التعلم، فسيكون من المفيد أن تتعلم من شخص أكبر منهم سنًا؛ لكن إذا كنت تعلم فلا يُعدُّ ضروريًا أن تسألهُم؛ غير أنَّه إن كان يجب عليك أن تسألهُم فأفعهم أن يسألوك عما يرغبون فيه، إذ بالنسبة للمعلمين فهم عادةً يجيبون عن أسئلة الناس ولا يطرحون الأسئلة على الناس. وإذا حدث أن طرحوا سؤالاً فذلك من أجل توجيه فكر سائل معين حتى يسأل على نحو صحيح، ويمكن أن يعرفوا ما رغبته. إنه لأمر خير أن يعرف الإنسان كيفية طرح الأسئلة.

قال عبيدة: أنا أرغب في التعلم، لكنني سعيتُ في البداية إلى طرح الأسئلة على هؤلاء الإخوة، لأنّي شعرتُ بالخزي في حال قمتُ بتوجيه أيّ سؤال إليك³⁰.

يتبيّن أن كتاب شرائع البلدان جاء على هيئة حوار بين مجموعة من الأشخاص أثناء عيادتهم لصديق مشترك بينهم كان يعاني من المرض هو شمسرام، وكان الشخص الذي أثار الحوار هو عبيدة، إذ يظهر أنه التقى مع تلميذ بريديسان في منزل شمسرام، وأراد تكييّتهم فطرح عليهم أسئلة تتضح مرجعيته الثقافية على أساس تحليلها، فـ"عبيدة" يحاول في بداية طرحة للأسئلة أن يُشكّك في وحدانية الله بقوله "إذا كان الله واحداً، كما قلتم..."، وهذا يعني أنّ عبيدة لا يُسلّم بفكرة وحدانية الله، وحاجته في ذلك أنّه لو كان الله واحداً لخلق البشر بما هيّة مشتركة هي الخير، فيقتضي ذلك أن تكون أفعالهم كلّها خيراً، غير أنّ البشر يفعلون الشرّ، وهذا يدلّ في رأي عبيدة -كما هو مُضمر في سؤاله- على أنّه يفترض وجود إلهين للعالم: الأول يقف وراء أفعال الخير التي يقوم بها البشر؛ والثاني: يقف وراء أفعالهم الشريرة، ولو كان هناك إله واحد فعلاً لجعل البشر أجمعين يقومون بالأفعال الخيرة فقط، أي كأن لا بد من وجود تجانس في أفعالهم لأنّ خالقهم واحد، وبذا يتحقّق إرادته أفضل تحقيق، لكن في رأي عبيدة ما نشاهد من شرور يدلّ على أنّ افتراض وجود إله خير هو افتراض جزافي تماماً؛ لأنّه يجب في رأي عبيدة -أن يكون هناك إله شرير يقف وراء أفعال البشر الشريرة!!

والحقيقة أنّ هذا التحليل للأسئلة عبيدة يكشف أنّه ذو نزعة زرادشتية مُحدثة، أي يلوح أنّه من أتباع ديانة اثنينية تقول بوجود إلهين: أحدهما خير والآخر شرير، ويرجح أنّ عبيدة كان مرقيونياً، أي من أتباع مرقيون الذي توجد دلائل -كما تبيّن في سياق البحث- على أنّه أثبت وجود إلهين: أحدهما إلى العهد العتيق سبب الشرور؛ والآخر إلى العهد الجديد منقذ العالم. وهذه النظرة نفسها ستتطور لاحقاً في المانوية؛ لكن اللافت هنا أنّ بريديسان كما يظهر من حواره حاول تقويض الأسس الفكرية التي استند إليها عبيدة في تشكيكه بوحدانية الله، وهذا ينفي عن بريديسان أي تهمة بالتشويّه أو الاتثنينية، أي يدفع عنه أي اتهام بأنه يقول بأصولين للعالم (نور وظلمة). كما أنّ بريديسان يأخذ على عبيدة

³⁰- Bardesan, Book of the Laws of Countries, in: SpicilegiumSyriacum: Containing Remains Of Bardesan, Meliton, Ambrose And Mara Bar Serapion. Now First Edited, With An English Translation And Notes, By The Rev. William Cureton, M A. F.R.S. Chaplain In Ordinary Of The Queen, Rector Of St. Margaret 's, And Canon Of Westminster. London: Francis And John Rivington, St. Paul's Churchyard And Waterloo Place. M Dccc Lv.p.1.

أَنَّه قد ساق تفكيره نحو التحْيُر في اختيار إِمَّا الشَّيْنَيَّةُ الْأَلْوَهِيَّةُ أَوْ وَحْدَانِيَّتِهَا. وَصَرَفَ ذَهْنَهُ إِلَى رَدِّ الْأَفْعَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى جَبَرِيَّةِ أَنْطَوْلُوْجِيَّةِ تَسْلِبُ مِنَ الْبَشَرِ أَيِّ فَاعْلَيَّةِ حَرَّةٍ. كَمَا أَنَّ بِرِدِيسَانَ بَعْدَ أَنْ وَجَهَ هَذَا النَّقْدَ الْمَعْقُقَ لِـ "عَبِيدَةَ" حَاوَلَ تَعْلِيمَهُ آدَابَ طَرْحِ الْأَسْئَلَةِ عَلَى الْآخَرِينَ. وَأَرَادَ بِرِدِيسَانَ مِنْ عَبِيدَةَ أَنْ يُغَيِّرَ قَنَاعَاتِهِ لِأَنَّهَا تُخْلِلُ بَوْحَدَانِيَّةِ لَهُ وَتَنَافِي مَعَ الْحَقِيقَةِ.

لَكِنَّ، اسْتَطَاعَ عَبِيدَةَ أَنْ يَوْجَهَ كَلَامًا عَمِيقًا لـ "بِرِدِيسَانَ" بِدَلْ عَلَى تَقَافُتِهِ الْأَصْبِلَةِ، إِذَا قَالَ مُخَاطِبًا بِرِدِيسَانَ: "أَرَغُبُ بِشَدَّةٍ فِي أَنْ أَسْمَعَ وَأَنْ أَكُونَ مَقْتَنِعًا، لِأَنِّي لَمْ أَخْذُ هَذَا الْكَلْمَ منْ أَيِّ شَخْصٍ آخَرَ؛ وَقَدْ تَكَلَّمْتُ بِهِ انْطَلَاقًا مِنْ عَقْلِي وَوِجْهِهِ إِلَى إِخْوَتِي، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى إِقْنَاعِي، لَكِنَّ قَالُوا: آمِنْ حَقًّا، وَسِتَّمْكَنْ مِنْ مَعْرِفَةِ كُلِّ شَيْءٍ؛ غَيْرَ أَنِّي لَسْتُ قَادِرًا عَلَى الإِيمَانِ دُونَ أَنْ أَكُونَ مَقْتَنِعًا but I am not able to believe unless I be³¹" convinced.

هَذَا يَثْبِرُ عَبِيدَةَ سِجَالًا فَلْسَفِيًّا عَالِيَّ الْمَسْتَوِيِّ، بِمَعْنَى أَنَّهُ يَثْبِرُ إِسْكَالِيَّةَ الْعَالَقَةَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعُقْلِ، فَأَصْدِقاُوهُ يَطَّالُبُونَهُ بِأَنْ يُؤْمِنَ أُولَا ثُمَّ بِدَأْ بَعْدَ ذَلِكَ باسْتِخْدَامِ عَقْلِهِ لِبَرْهَنَةِ مَا آمَنَ بِهِ؛ أَمَّا عَبِيدَةَ نَفْسَهُ فَقَدْ رَفَضَ هَذِهِ الْمَطَالِبَ لَهُ، وَأَكَّدَ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِعُ أَنْ يُؤْمِنَ مَا لَمْ يَقْتَنِعْ عَقْلَيًّا فِي الْبَدَاءَةِ. وَسِيَكُونُ لِهَا السِّجَالُ حَضُورٌ وَاسِعٌ فِي الْفَلْسَفَةِ الْمُسْيِحِيَّةِ وَكَذَّاكَ فِي الْفَلْسَفَةِ الْعَرَبِيَّةِ-الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْوَسِيْطِ، بِصَدَدِ الْعَالَقَةِ بَيْنِ الْعُقْلِ وَالنَّفْلِ.

لَكِنَّ بِرِدِيسَانَ رَدَ عَلَى عَبِيدَةَ عَلَى النَّحوِ الْأَتَى: "يَوْجُدُ أَنَّاسٌ كَثِيرُونَ لَيْسُ لَدِيهِمْ إِيمَانٌ، وَلَا يَنْهَلُونَ الْمَعْرِفَةَ مِنْ حِكْمَةِ الْحَقِيقَةِ the wisdom of the truth. وَعَلَى أَسَاسِ هَذِهِ التَّفْسِيرِ لَا يَحْقُّ لَهُمُ التَّحْدِيثُ وَالْإِرْشَادُ وَلَا يَصِيخُونَ السَّمَاعَ لِغَيْرِهِمْ بِسَهْوَلَةٍ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسُ لَدِيهِمْ أَسَاسٌ لِلْإِيمَانِ كَيْ يَبْنُونَ عَلَيْهِ، وَلَيْسُ لَدِيهِمْ تَقْةً فِيمَا يَأْمُلُونَ فِيهِ، وَلَا تَهُمْ كَذَلِكَ فَهُمْ يُشَكَّكُونَ فِي احْتِرَامِ اللَّهِ، إِذَا إِنَّهُ لَيْسُ فِي دَاخِلِهِمْ ذَلِكَ الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ الَّذِي يَحْرُرُهُمْ مِنَ الْمَخَاوِفِ كَافَةً: مِنْ لَمْ يَخْفِ اللَّهُ مِنْ دَاخِلِهِ، فَهُوَ خَائِفٌ بِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْخَوْفِ for whoso hath not the fear of God within him, he is subject to every fear لأنَّهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِمَّا كَانَ، فَإِنَّ الَّذِينَ لَا يَؤْمِنُونَ، لَا يَعْرِفُونَ إِنْ كَانُوا لَا يَؤْمِنُونَ بِطَرِيقَةٍ صَحِيحةٍ؛ لَكِنَّهُمْ غَيْرُ مُسْتَقِرِّينَ فِي عَقْلِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِعُونَ النَّهْوَضُ، وَمَذَاقُ أَفْكَارِهِمْ تَأْفِهُ (دون طعم) فِي أَفْوَاهِهِمْ، وَهُمْ دَائِمًا جِبَانُ وَمَتَعَجَّلُونَ وَطَائِشُونَ".³²

³¹ –Bardesan, Book of the Laws of Countries,p.2.

³²– Bardesan, Book of the Laws of Countries,p.3.

هنا كما هو ظاهر دحض بردیسان عدم الإيمان لدى كثير من الناس، ونظر إلى فقدان اليقين لديهم بصفته نقضاً للحقيقة التي يرفض وجودها المتذمرون للمعرفة. والواقع أنّ بردیسان هنا -كما هو واضح- لا يدافع عن إيمان بعيشه ولا عن يقينٍ محددٍ مأمورٍ بذاته؛ بل دافع عن الإيمان محضاً أو عن اليقين مطلقاً، ذلك أنه يؤمن بوجود الحقيقة، ولا يقبل أي تشكيك في وجودها، وكأنّه هنا يغمز من قناعة أولئك الذين يرفضون وجود الحقيقة، ولا ينصح بأخذ العلم عنهم، لأنّهم في نكرائهم للإلهية ليسوا واقفين من صحة مناهجهم في نكرانها.

غير أنّ عبيدة لم يقتصر تماماً بما أورده بردیسان عن الانحدار الفكري الذي أصاب الأشخاص الذين لا يؤمنون بالله، لأنّ نظرته الاستقرائية المعمقة للواقع لا تسمح له أن يستسلم للهجمات النقدية العنيفة التي يوجهها بردیسان ضد الملحدين. إذ ما تزال هناك شكوك تحوم في ذخيرته إزاء وحدانية وعدالة الله، فها هو قد وجّه كلامه إلى بردیسان قائلاً: "لماذا لا يخلفنا الله على نحو لا خطئ ولا نرتكب الذنب فيه"³³.

وهنا يظهر واضحاً أنّ عبيدة يثير مشكلة وجود الشر في العالم، تحديداً الشر الذي ينجم عن أفعال البشر، ففي رأيه أنّ الله الواحد كُليَّ القدرة يستطيع أن يخلق بشراً مثاليين لا يأتيهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم، ذلك أنّ الله ذو فعالية غير نهائية، فكان الأخرى به أن يخلق البشر أبرياء من ارتكاب الشرور!!!

وهنا يردّ بردیسان بنفاذ بصيرة ثاقب وذكاء على درجة عالية من الألمعية، إذ قال: "لو خُلِقَ الإنسان على هذا النحو (=كما قال عبيدة)، لما كان ذاته، وإنما كان أداة أو آلةً خاضعةً لمن قام بتسخيره if man had been created so, he would not have been for himself, but would have been the instrument of him who moved him؛ ويُعدُّ معلوماً أنَّ محرِّكاً لمتحرَّك سيرَّكه كما يشاء سواء أكان هذا التحرِّك نحو الخير، أم نحو الشر".

وكيف يختلف الرجل عن قياثة يعزف عليها أحد الأشخاص، أو عن سفينة يوجّه دفتها الآخرون: لكن المدح أو اللوم يتوقفان على يد عازف القياثة، إذ إنَّ القياثة نفسها لا تعرف ما عُزِفَ عليها، ولا السفينة تعرف إن كان توجيهه دفتها قد تمَّ في الاتجاه الصحيح، أم في الاتجاه المغلوب، إذ إنَّهما أداتان أو آلتان صُنعتا لمن يملك العلم بنفسه؛ لكن الله رفع الإنسان حينما أعطاه إرادةً حزة فوق أشياء كثيرة، وجعله متساوياً مع

³³-Bardesan, Book of the Laws of Countries,p.3.

الملائكة كي يراقب الشمس والقمر والكرة السماوية sphere وبقيّة تلك المخلوقات التي هي أكبر منا في بعض الأمور؛ غير أنه لا يتم منح الإرادة الحرة لذواتها، إذ إنّ هذه المخلوقات مثبتة كلّها بموجب قضاء إلهي ordinance وأنه يجب عليها أن تفعل فقط ما هو مقدر لها، ولا شيء غير ذلك. إذ إنه بالنسبة للشمس لا تقول أبداً لن أشرق في الوقت المخصص لإشرافي، ولا القمر يقول لن أحضر لاستحالات انتقالى من هلال إلى بدر، كما لا تقول أيّ نجمة من النجوم إني لن أشع ولن أطمس إشعاعاتي، كما لا يقول البحر إني لن أجعل السفن تطفو على مياهه ولن أبقى داخل حدودي، بل سأبغي وأتعدها، ولا تقول التلال إننا لن نقى في الحيز المرسوم لنا الذي نتحبّز فيه، كما أن الرياح لا تقول إنها ستتوقف عن الهبوب، ولا الأرض تتحدى عن رفضها ونبذها لكل ما يقع فوقها: إنّ هذه الموجودات كافة تخضع وتخدم قضاء إلهياً واحداً، لأنها أدوات لحكمة الله المنزهة عن الخطأ. وإذا كان كلّ شيء في الكون مُسخراً، فain نجد الشيء المُسخر بين هذه الأشياء المُسخّرة؟ لذلك [إذا سلمنا بهذه الحال] لن يكون هناك شيء مختلف عن الآخر. ولهذا السبب ما هو مفرد ولا تمايز فيه هو موجود لم يتم تكوينه إلى يوم الناس هذا؛ لكن تلك الأشياء المُسخّرة، فإنّها ثابتة بقوّة الإنسان، لأنّه خُلق على صورة الله because in the image of Elohim he was created، وعلى أساس هذا التفسير أعطي الإنسان هذه الأشياء باللطف [إلهي] حتى تخدمه إلى حين. وقد أعطي له هو أن يحكم نفسه بإرادته الخاصة، كما أعطي له ما هو على أيّ حال قادر على فعله، إذا اقتضى الأمر أن يقوم بفعله، وما لا يجب أن يقوم بفعله، إذا اقتضى الأمر إلا يقوم بفعله، كما أعطي له أن يسوغ لنفسه أفعاله أو يدينه. لذلك إذا تم تكوينه (=الإنسان) بصفته غير قادر على فعل الشر الذي يُدان به، وبالطريقة نفسها أيضاً إذا تم تكوينه بصفته فاعلاً للخير، فإنَّ الخير الذي يفعله لن يكون له ولن يكون قادرًا على تسويفه. لأنَّ من لا يفعل بإرادته الممحض أفعال الخير والشر، فإنَّ توسيع أفعاله أو إدانتها سوف يتوقفان على مصايره التي خلق من أجلها³⁴.

ويظهر جلياً هنا أنَّ بردیسان قد أسس لنظرية جديدة في تفسير معنى الشر في العالم، إذ إنه يرفض على نحوٍ تام ما حاول عبيدة إثباته من أن قيام البشر بأفعال خبيثة وأخرى شريرة يدل على وجود الشيئية في الألوهية، أي أنَّ هناك إليها يقف وراء كلّ ما هو خير وإلها آخر يقف وراء كلّ ما هو شرير، والحجّة التي اعتمدها عبيدة يمكن حسبانها

³⁴- Bardesan, Book of the Laws of Countries,pp.3-4.

حجّة جدلية- مفادها هو أنّه لو كان الإله واحداً لكان أفعال مخلوقاته واحدة ومتجانسة، لكن نظراً للبن الكبير بين أفعال الخير وأفعال الشر لدى البشر، فلا بدّ أن تكون أفعالهم خاضعة لقسييمين هما: إله الخير وإله الشر؛ لكن بريصان استطاع ببراعة تبيّن أنَّ الإله الواحد لو خلق البشر على نحوٍ من الوجود لا يستطيعون الانفكاك عنه، لكانوا بمثابة الجمادات، فالقانون الإلهي الذي يسير على وتيرة واحدة لا تقبل التحول أو الحياد عنها ينطبق على نظام العالم الفيزيقي مثل حركة الأفلاك...؛ أما الإنسان فلا يجوز أن يخضع للنظام الفيزيقي نفسه، بل يجب أن يكون حرّاً وبقدر ما يكون حرّاً يستطيع القيام بأفعال الخير أو أفعال الشر، وهذه مزية للإنسان. لذلك أصل الشرور التي يرتكبها البشر يرجع إلى إراداتهم الحرّة، وليس إلى إله العالم، فلا يجب أن نعزّو الشر إلى إله العالم إن كان هناك بين البشر أشخاص يرتكبون الشرور، لأنَّ ذلك الشر يرجع إلى اختيارتهم وليسوا مجبورين عليه البتة، فالبشر يتستّرون أعلى ذروة في هرم الوجود.

يقول يوتوبوسكيل المحاضر في مدرسة هارفرد اللاهوتية "يمكن للمرء أن يلاحظ أيضاً أنَّ بريصان هنا متافق مع وجهة النظر الرواقية التي مفادها أنَّ العالم يوجد لخدمة البشرية world exists to serve humankind. وكان إبكتيتوس Epictetus قد شدّد في خطبه على أنَّ الحيوانات لا توجد من أجل ذاتها، أو من أجل مصلحتها الخاصة، ولكن من أجل خدمة النوع الإنساني، سأله شيشرون Cicero على نحو مشابه في بحثه الموسوم بـ"طبيعة الآلهة De naturae deorum" عن الغاية التي من أجلها خُلِقَ العالم، وأجاب: [أنَّ الأشياء كافة التي يستخدمها البشر في هذا العالم قد تمَّ خلقها وابتدارها من أجل خدمة البشر that all the things in this world which human beings employ have been created and provided for the sake of human beings." كما أكد شيشرون على وجه التحديد أنَّ الشمس والقمر والهيئات السماوية الأخرى قد أنشئت حتى يكون النوع الإنساني قادراً على تأمّل جمالها وتحديد الأزمنة والفترcos بواسطتها. في القرن الثاني أكد سيلسوس Celsus أنَّ كل شيء في الكون خُلِقَ من أجل الحيوانات غير العاقلة ومن أجل النوع الإنساني على حد سواء، ولكن هذه وجهة نظر رفضها أوريجين Origen في كتابه الرد على سيلسوس Contra Celsum³⁵.

³⁵ Possekel, Ute, Bardaisan and Origen on Fate and the Power of the Stars, Journal of Early Christian studies, Volume 20, Number 4, Winter 2012, pp.515-541.

والحقيقة أنَّ رأي يوبوسكيل ليس بعيداً عن الصواب، فوجود تأثير روافي في فكر بردیسان ليس مستبعداً، لكنه ليس تأثيراً قادماً من اليونان أو روما باتجاه الرُّهَا المدينة تلك السورية التي عاش فيها بردیسان؛ بل هو تأثير منتبث من البنية الحضارية نفسها التي يُعدّ بردیسان متحدراً منها، إذ إنَّ مؤسس الروافية هو زينون الفينيقي الأصل.

علاوة على ذلك كان بوزيدونيوس Posidonius أحد أكثر المفكرين الرواقيين شهرةً واحتراماً، وهو بنحدر من أقاميا Apamea التي لا تبعد كثيراً عن جنوب ولاية أديسا Edessa. إذن، من غير المفاجئ أنْ يُظهر بردیسان مثل هذه التوجهات المبنية على المواقف الروافية حول طبيعة القدر ودور الإرادة الحرة للإنسان³⁶.

هذا، إلى أنَّ طريقة بردیسان في الدفاع عن وحدانية الله سيكون لها تأثير كبير في مواجهة رجال الكنيسة الأوائل للمانويين الذين يقولون بوجود اثنينية في الألوهية، فالقديس أوغسطينس، تمثيلاً لا حسراً، حاول في كتابه "مدينة الله"، في معرض كلامه على "صلاح الله" هو أصل كل خير وما يراه الإنسان شرًا ليس شرًا بحد ذاته، أن يقوض نظرية المانويين الاثنينية إلى العالم ويفقد أيضاً إسقاطهم هذه النظرة على الأفعال الإنسانية نفسها، بمعنى رفض رأيهم في رد ما هو شرير منها إلى إله شرير، وما هو خير منها إلى إله خير، لذلك أكد أوغسطينس: "في الحقيقة، لا يمكن للشر أن يكون جوهرًا، بل هو فقدان الخير... فهل نعجب إذاً ممَّن يؤمنون بوجود طبيعة شريرة ولدية مبدأ مستقلٌ عدو، ويرفضون الاعتراف بصلاح الله، دفاعاً عن الخلقة مقتعين بأنه لم يُقم، إلا في النهاية، هذه الحواجز العالمية ضد ثورة الشر، وإن يخلطون بينه وبين طبيعة الشر، فهراً له، وانتصاراً عليه. إنَّ المانويين لا يسقطون في هذا الإفراط من الحماقة، أو بالأحرى في هذا الهذيان، لو كان اعتقادهم صحيحاً لطبيعة الله ولطبيعة النفس. طبيعة الله ثابتة لا تقبل الفساد ولا التغيير؛ أما الطبيعة الأخرى التي استطاعت أن تتغير بسبب ما تعرضت له إرادتها فأفسستها الخطيئة، وحرمتها على هذا النحو من نور الحقيقة الثابتة، فإنها خلقة الله وليس جزءاً منه".³⁷.

³⁶-Denzey, Nicola, Bardaisan Of Edessa, in: A companion to Second-Century Christian "Heretics". Edited AnttiMarjanen& Petri Luomanen, Brill, Leiden.Boston,2005, pp.166-167.

³⁷-أوغسطينس، مدينة الله، المجلد الثاني، نقله إلى العربية: الخور أسقف يوحنا الخلو، دار المشرق، بيروت، 2002، الكتاب 11، الفصل 22، ص: 23-22.

ويظهر واصحاً أنَّ أوغسطينس قد عَوَّل على طريقة بردیسان نفسها في الرد على عبيدة بسبب قوله بإمكانية وجود اثنين في الألوهية، ذلك حينما ردّ أوغسطينس على المانويين، فإذا كان مرجحاً كما ذُكر في سياق البحث أنَّ عبيدة كان مرقونياً أو متاثراً بالمرقونية نظراً إلى أنه أشار إلى إله فاعل للشَّرِّ وإله فاعل للخير، فإنَّ المانويين يقولون بأصلين للعالم هما إله النور وإله الظلمة، لذلك استخدم أوغسطينس نقد بردیسان نفسه الذي وجَّهه إلى عبيدة، إلا أنَّ هناك فرقاً بين بردیسان وأوغسطينس، إذ إنَّ بردیسان أرجع كما ذُكر سابقاً قيام البشر بأفعال الخير والشر إلى حرية الإرادة، وليس إلى اثنين في الألوهية تتف وراء ما هو خير أو شرير في أفعال البشر، وبذا يكون بردیسان قد نظر إلى الإنسان في أفق أنطولوجي، بمعنى أنه قام بتوكيده بين الموجودات الأخرى بصفته موجوداً ممتازاً يمتلك القدرة على القيام بالأفعال من تقاء ذاته، وعلى هذا الأساس تمتاز الظاهرة الإنسانية الحرة عن الظاهرة الفيزيقية الخاضعة لقوانين العالم الفيزيقي، ويقدر الإنسان على تسخير هذه الظواهر الفيزيقية إلى حدٍ كبير لأنَّه يمتاز بالحرية؛ غير أنَّ أوغسطينس يُرجع ما يقوم به الإنسان من أفعال شريرة إلى فساد إرادته بسبب خطئه، ويقصد أوغسطينس بها الخطيئة الأصلية حينما أصفع آدم لكلام حواء-التي أغوتها الحياة- فأكل من ثمار الشجرة المحرمة، فكانت عقوبتهما على ذلك هي السقوط إلى العالم الأرضي، ونقلهما من جراء ذلك دنس الخطيئة إلى نسلهما الذي اعتاد ارتکاب المعاصي واقتراض الأفعال الشريرة، وبذا يكون أوغسطينس قد نظر إلى الإنسان في أفق اللاهوت المُوحى الذي تكرَّست على أساسه نظرة سلبية للإنسان بصفته مجبولاً بالخطيئة، إذ نقرأ في مزامير داود "هأنذا بالإثم صورُتُ، وبالخطيئة حيلت بي أُمي".³⁸

ولا غرو في أنَّ هناك تشابهاً بين عبيدة وأوغسطينس في طريقة التفكير، على الرغم من الفرق العقدي الظاهر القائم بينهما، ويظهر هذا التشابه في أنَّ عبيدة يُرجع الأفعال الشريرة التي يقوم بها الإنسان إلى إله شرير، وأوغسطينس يُرجع أفعال الإنسان الشريرة إلى الخطيئة، وهذا يعني أنَّ كليهما يحدد سبباً واحداً أحداً أو كلِّياً يقف وراء فعل البشر للشَّرور، فالنسبة لـ"عبيدة" هناك إله شرير هو الجذر العميق للشَّرِّ الإنساني؛ أما بالنسبة لـ"أوغسطينس"، فالخطيئة أي مخالفة الإله هي أساس الشَّرِّ الإنساني، وهذا يعني أنَّ عبيدة وأوغسطينس يُرجعان الشَّرور الإنسانية أصلاً إلى الألوهية، على الرغم من أنَّ أوغسطينس ترك فسحة لحرية الإرادة، لكن قوله بالخطيئة يسلب هذه الإرادة نفسها برأعتها

³⁸- الكتاب المقدس / العهد العتيق /سفر المزامير: المزمور 51: 5 عبارة رقم 5.

أو قدرتها المتوازنة على الفعل، بمعنى أنَّ عبيدة وأغسطينس يشتراكان في تحديد عَلَة ميتافيزيقية قاهرة هي أساس للشرور، أي أنهما يشتراكان على الرغم من بعد المسافة الزمنية والاختلاف العقلي بينهما في القول بنوع من الجير يوجه الأفعال الإنسانية، وكأنَّ البشر أشبه بأحياء غير عاقلة، لكن ذلك وفقاً لطريقة كلٍّ واحدٍ منها في فهم حقيقة الأشياء.

غير أنَّ بريديسان لا يوافق على هذه النظرة إلى حقيقة الإنسان، فقال: إنَّ "البشر لا يُحكمون بهذه الطريقة، لكن في الأشياء التي تنتهي إلى أجسادهم فإنهم يحافظون على طبيعتهم مثل الحيوانات، وفي الأشياء التي تنتهي إلى عقولهم فإنهم يفعلون ما يشاون، ذلك بصفتهم أحرازاً يُعدون من ذوي القوة والأيد، فهم على مثال الله: likeness of God؛ ذلك أنَّ هناك أشخاصاً من البشر يأكلون اللحم ولا يقتربون من الخبز؛ كما أنَّ هناك أشخاصاً آخرين منهم يميّزون في أكل اللحوم make a distinction in the eating of flesh [فيُحلّلون أنواعاً منها ويحرّمون أنواعاً أخرى منها]؛ هذا، إلى أنَّ هناك بعضاً من البشر لا يأكلون أي لحم من لحوم الحيوان الذي توجد فيه روح؛ ويوجد أشخاص آخرون تربطهم علاقة جنسية connexion مع أمهاتهم their mothers، ومع شقيقاتهم sisters، ومع بناتهم their daughters؛ لكن هناك أشخاصاً من البشر لا يعاشرون النساء إطلاقاً؛ وهناك أشخاصٌ من البشر ينتقمون بفتاكٍ يُشبه فتكَ الأسود والفهود؛ وهناك أشخاص يؤذون من لم يبادرهم بأي سوء، مثلاً مثل العقارب scorpions؛ وهناك أشخاص يُساقون مثل الأغنام ولا يُيدون أي مقاومة إزاء من يحكمهم؛ وهناك أشخاص يتصرفون على أساس الفضيلة، وهناك أشخاص يسلكون مساكهم بصلاح righteousness، وهناك أشخاص آخرون يعيشون بالرذيلة vice. وإذا كان القائل أن يقول: إنَّ لكلَّ شخص من هؤلاء البشر طبيعة خاصة دفعته نحو القيام بما قام به؛ إلا أنَّ الأمر ليس كذلك، لذلك دعْ هذا القائل نفسه يعرف أنَّ هناك أشخاصاً كانوا رُنَاهَا drunkards وسُكاري fornicators، وحين وصلت إليهم توجيهات جيدة، أصبحوا أفعاءً ومعتدلين، وهجروا شهوة أجسادهم. كما أنَّ هناك أشخاصاً ربطوا أنفسهم بالعفة والزهد temperance chastity؛ لكن حينما بدأوا يهملون الْصَّحَّ وبحقِّهم تعاليم الإله Deity، ويزرون ما ي قوله لهم معلومهم، ضلّوا عن طريق الحقيقة fell from the way

of truth، أصبحوا زُناةً ومسرفيّن prodigals؛ وهناك أشخاص تابوا مرة أخرى بعد سقوطهم، إذ قد عادت الخشية إليهم، فرجعوا إلى الحقيقة التي آمنوا بها³⁹. وهذا يظهر على نحو واضح أنَّ برديسان قد بحث في الطبيعة البشرية بحثاً معمقاً ليثبت أنها ليست ذات ماهيَّة واحدة، وبما أنها ليست كذلك، فإنَّه لا توجد جبرية تفرض سلطوتها على الإنسان على نحو مطلق، فإذا كان الإنسان محكوماً على المستوى الفيزيقي بوجوده الجسدي، إلا أنه لا يمكن أن يخضع لأي جبرية تكبح حرية النفعية أو العقلية، ويستبين ذلك تماماً من الاختلافات الواقعة بين البشر في عادات الطعام والشراب وال العلاقات الجنسية والانتقام والثار والخصوص والطاعة وتغيير المعتقد وإلى ما هنالك. ولا شك في أنَّ توكييد برديسان على فكرة أنَّ البشر محكومون بالقدر بسبب طبيعتهم الحيوانية وأنَّهم متحررون بطبيعتهم العقلية منه مثل الإله تدل على نزعة روائية واضحة في فكر برديسان. ذلك أنَّه "بحلول القرن الثاني، كانت فكرة أنَّ الرواقين يفرضون حتميَّة شاملة thoroughgoing determinism قد انتشرت في الدوائر الأفلاطونية Platonist circles. كان معظم الأفلاطونيين في القرن الثاني متسرعين في نقد الحتمية الروائية بسبب ما تصوروه عنها من أنها ذات تقييدات فلسفية كبيرة. وبما أنَّ الرواقين الأوائل كانوا غير راغبين في إسناد أي شيء آخر غير الخير إلى الله، فإنَّ أي شرٌ يحيق بالبشر لا يمكن التوفيق بينه وبين تدبير كونيٍّ خيرٍ جوهريًا an essentially benevolent cosmic economy. لكن بالنسبة إلى الرواقين من التابعين، كان الحل سهلاً: لقد نقلوا مشكلة الشر من مجال الفيزيقا the field of physics إلى مجال الأخلاق the field of ethics، وبكلمات أخرى: إلى المشاعر والأفعال الإنسانية. وقد اعتمد أفالاطونيو المرحلة الوسطى the middle Platonists هذا الحل. إنَّ تبعة الشر لا تتمكن في المصير، لكن تأتي في إطار الأفعال الإنسانية والمسؤولية عنها، بما أنه يتُنظر جوهريًا إلى الإرادة الإنسانية بصفتها مستقلة بذاتها. وفي الواقع إنَّ تعاليم برديسان عن المصير تتحرك باتجاه مماثل⁴⁰.

لكن يُعدَّ أمراً مهماً هنا التركيز على منهجية برديسان في فهم الطبيعة البشرية، ذلك أنه يستقصي اختلاف البشر في طبائعهم ومشاعرهم ورغباتهم، لينتهي إلى تعميم مفاده

³⁹- Bardesan, Book of the Laws of Countries,pp.9-10.

⁴⁰-Denzey, Nicola, Bardaisan Of Edessa, in: A companion to Second-Century Christian "Heretics". Pp.167.

أنه لا توجد طبيعة بشرية ثابتة، بل توجد طبائع متعددة، ولا يمكن النظر إلى الطبيعة الإنسانية بصفتها ثابتة لا تقبل التغيير، لكن هي متغيرة تبعاً للظروف والأحوال والمواقف، كما أن للتربية دوراً كبيراً في تغيير سلوك الإنسان وتفكيره. والحقيقة أن هذه المعطيات البحثية تسمح بالقول: إن بريديسان كان رائداً من رواد الأنثروبولوجيا الفلسفية* فهو قد حاول أن يؤسس لنظرة أنطولوجية عميقة لمعنى وجود الإنسان في الكون. وبذالـ يختلف عن الرواقيين الذين حدّدوا موقع الإنسان في الكون، لكن استناداً إلى نظرتهم في وحدة الوجود التي قادتهم إلى جعل الحرية الإنسانية مهما كانت مستقلة-تبعاً لاحقاً لرؤية أنطولوجية شمولية للطبيعة.

وقد نقد بريديسان أولئك الذين "لا يرون أن الطبيعة لا يوجد فيها قانون law no لأن الرجل لا يلام إن كان طويلاً القامة أو قصيراًها، أو إن كان أبيض أو أسود، كما لا يُعاتب إن كان واسعاً العينين أو ضيقهما، ولا يؤخذ بجريرة أي عيب من عيوب الجسم: لكن يُلقى باللوم عليه إذا كذب، أو سرق، أو مارس أي نوع من أنواع الخداع، أو دسَّ السم، أو كان من السبابيين الشنائمين، أو فعل أشياء من هذا القبيل؛ من هنا يُعدُّ واضحاً أنه بالنسبة لتلك الأشياء التي لا نقوم بها بأيدينا، لكن هي لدينا من الطبيعة، فإننا غير مدانين بسيبها، ولا بسيبها ننجو من الإثم ، غير أن تلك الأشياء التي نقوم بها بوساطة إرادتنا الحرة our own Free will، إذا كانت خيراً ننجو من الإثم وندحر، وإذا كانت شريرة، ندان ونلام بسيبها".⁴¹

ويظهر واضحاً أن بريديسان جرد من الطبيعة أي إمكانية تتحدد على أساسها إنسانية الإنسان، ووجه البراعة في طريقة تفكيره أن ما يأتينا بسيب الطبيعة لا يقبل المدح أو الذم، لا يُعدُّ من الفضائل، كما لا يُعدُّ من الرذائل. وبذالـ يسلب بريديسان من الطبيعة أي وعي من أي ضربٍ كان، بمعنى أن الطبيعة حيادية تماماً بالنسبة إلى إنسانية الإنسان

* يؤكد الفيلسوف الألماني مارتن هيدغر أنه يمكن "وضع الأنثروبولوجيا فلسفية من حيث إن منهجها فلسيٌّ، ويكون موضوعها هو وضع نظرة في ماهية الإنسان، وثريغ إلى تمييز وجود الإنسان من وجود النبات والحيوان وسائر مناطق الوجود. وعلى هذا النحو تصبح الأنثروبولوجيا الفلسفية أنطولوجيا إقليمية تتغلق بالإنسان، إلى جانب سائر الأنطولوجيات التي تتناول ميدان -ذلك يمكن الأنثروبولوجيا أن تكون فلسفية إذا جعلت موضوعها تحديد مكانة الإنسان في الكون]. ذلك هو المعنى الحقيقي -والوحيد الصحيح- للأنثروبولوجيا. أما ما يُسميه علماء الاجتماع المعاصرةون بهذا الاسم، فلا شأن له بالأنثروبولوجيا بالمعنى الصحيح، إنما هو سوء استعمال منهم لهذا اللفظ، مهما ميزوه أحياناً بالوصف: (أنثروبولوجيا) اجتماعية". يُنظر: بدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، ج 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984، مادة: أنثروبولوجيا (=ص:232).

⁴¹- Bardesan, Book of the Laws of Countries, pp.10.

التي لا يمكن أن تتحدد على أي معيار طبيعي أو فيزيقي. وهنا يختلف بردیسان عن الرواقين اختلافاً جوهرياً، لأنهم وضعوا في الطبيعة ضرباً من الوعي، ذلك انطلاقاً من نظرتهم في وحدة الوجود، إذ قولهم بوحدة الوجود يقتضي تسلি�مهما بأنّ الطبيعة حائزة على ضربٍ من الوعي، لذلك ماثلوا بين الطبيعة والقدر ولم يكتشفو أي فرق بينهما.*

لكن كما أكد بردیسان "حينما المواقت والأ نوع في الطبيعة تصل إلى تمامها، حينئذٍ يظهر القدر Fortune* وسطها، ويؤثّر في الأشياء التي تختلف عن بعضها بعضاً، وفي وقتٍ ما يُعيّن الطبيعة وينمّيها، وفي وقت آخر يعوقها ويوذّيها؛ ومن الطبيعة يأتي نمو الجسم وكماله؛ لكن بمعزلٍ عن الطبيعة وعن طريق القدر تصيبُ الأمراض والعيوب الجسم؛ من الطبيعة يكون الانجداب الجنسي بين الذكور والإثاث، وتحقّق اللذة للكلا طرفين؛ لكن من القدر يأتي المقت abomination الشفاعة والتعارض في المعاشرة وكل أنواع الشفاعة والبذاءة التي يقوم بها البشر بسبب انجدابهم الجنسي بفعل شهوتهم. من الطبيعة تكون الولادة ويكون الأطفال؛ من القدر يأتي الأطفال أحياناً مشوّهين؛ وأحياناً يتم إهمالهم، ويموتون أحياناً في وقت غير مناسب؛ من الطبيعة هناك كفاية في الاعتدال moderation لدىـكـ، من القدر نفسه تكون الشراهة gluttony ويكون الإسراف extravagance اللذان هما غير ضروريـنـ. نقتنـيـ الطبيعة إمرةـ الكـهـولـ عـلـىـ الفـتـيـانـ، وأنـ يـوجـهـ الحـكمـاءـ الجـهـلـةـ؛ وأنـ يـترـأـسـ الشـجـاعـانـ الجـبـنـاءـ، وأنـ يـقـودـ الـجـسـورـونـ الـخـجـولـينـ. لكنـ الـقـدـرـ تـسـبـبـ فيـ إـمـرـةـ الـفـتـيـانـ عـلـىـ الـكـهـولـ، وـفـيـ تـوجـيهـ الـجـهـلـ لـلـحـكـمـاءـ، وأـصـبـحـ الـجـبـنـاءـ فيـ وـقـتـ الـحـرـوبـ هـمـ الـذـيـنـ يـجـبـ أـنـ يـقـوـدـواـ الشـجـاعـانـ، وـصـارـ الـخـجـولـونـ يـتـحـكـمـونـ بـالـجـسـورـينـ".⁴²

وهنا يتبيّن على نحوٍ واضح أنَّ بردیسان أَسَسَ لنظرية فلسفية عميقة في تحديد حقيقة العلاقة بين القدر والطبيعة، فالطبيعة في نظره تتحرّك غالباً بطريقـةـ آليـةـ نحو تحقيق غاياتها، ولا يمكن لنا أن ننظر إلى هذه الغايات بصفتها خيراً أو شريراً، بل يجب أن ننظر إلى هذه المسألة على أنَّ الطبيعة تؤدي وظيفتها على أكمل وجه، وهذه الوظيفة تؤديها الطبيعة على نحوٍ مضبوطٍ مُحكِمٍ؛ لكن ما يعوق عمل الطبيعةـ فيـ رأـيـ

*إِنَّ الرَّوَاقِينَ أَكَّدُوا الْقَدْرِيَّةَ الْمُتَشَدَّدَةَ، فَعَزَّزُ زَيْنُونَ الْقَدْرَ أَنَّهُ قَوْةٌ تَحْرِكُ الْمَادَةَ عَلَى نَحْوِ مَنْتَظَمٍ رَتِيبٍ، بِحِيثُ يَمْكُنُ أَنْ نَسْمِي ذَلِكَ عَدَايَةً أَوْ طَبَيْعَةً. وَمِنْ هَذَا دُعَا الرَّوَاقِينَ إِلَى الْعِيشِ بِمَقْضِيِّ الطَّبَيْعَةِ، وَهُوَ مَا سُمِّيَّ بِاسْمِ حَبَّ الْقَدْرِ."
يُنْظَرُ: بَدْوِي، عَبْدُ الرَّحْمَنِ مُوسَوِّعَةُ الْفَلْسَفَةِ، جُ2، الْمَؤْسِسَةُ الْعَرَبِيَّةُ لِلْدِرَاسَاتِ وَالنَّشْرِ، بَيْرُوتُ، 1984، مَادَةُ الْقَدْرِيَّةِ (ص: 237).

*يمكن ترجمة هذه اللفظة Fortune بالقدر أو القضاء أو البخت أو الحظ.

⁴²- Bardesan, Book of the Laws of Countries, pp.13-14.

برديصان - هو القدر، فلئن كان القدر يساعد الطبيعة أحياناً، إلا أنه في أحياناً كثيرة يخرب ما بنته الطبيعة، فحركة الطبيعة وهنا وجه العمق في فكر بريصان لا تمثل البتة حركة القدر أو تصارييفه، لأن أي انزياح في الحركات الطبيعية ليس نابعاً من الطبيعة نفسها، وإنما من قوة قاهرة تختلف في ماهيتها عن الطبيعة هي القدر. ويبدو واضحاً أنَّ بريصان يشخص عمل القدر في الشَّرِّ الظاهر في العالم، فالآمراض المزمنة والفواحش والشذوذ الجنسي والتشوهات الخلقية والجوع والآلم والإفراط في الشهوات وتحكُّم الجهلة بالأمور وتحييد العقلاً وحكم الناقصين للكلِّ، كلَّها فروع لأصلٍ واحدٍ هو القدر.

إذن، القدر هو تخريب قد يُصيب بخاصَّةً حيويَّةً أو عضويَّةً الجسم الإنساني ويحطِّم نفسيته الداخليَّة، أو قد يكون هذا التخريب بعامة حاصلاً على المستوى الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي، أي: إنَّ الأمر سِيَّان، سواء أكان هذا التخريب ناجماً عن أسباب موضوعيَّة، أم ذاتيَّة.

لكن بريصان يفتح آفاقاً كبيرة للفعالَيَّة الإنسانية قائلاً: "كما نرى القدر يسحق الطبيعة، هكذا نستطيع أن نرى أيضاً الإرادة الحرة للإنسان تصدُّ وتُسحق القدر نفسه so we can also see the Freewill of man repelling and crushing Fortune itself".

لكن ليس في كلِّ شيء، كما أنَّ القدر نفسه لا يصدُّ الطبيعة في كلِّ شيء".⁴³

والحقيقة أنَّ توكيده بريصان لفكرة أنَّ الإرادة الحرة للإنسان تنتافي عميقاً مع تقديميه بصفته مفكراً لا هوئياً يؤيد عقيدة بعينها؛ بل كان مفكراً حرّاً لا يميل إلى اتجاه دون غيره، وتتصف طريقة تفكيره بأنها ذات أبعاد فلسفية ظاهرة لا تتناسب مع طرق التفكير اللاهوتيَّة.

⁴³- Bardesan, Book of the Laws of Countries, p.14.

نتائج البحث:

استطاع البحث الوصول إلى جملة من النتائج يمكن إجمالها على النحو الآتي:

أولاً: توجد دلائل تاريخية على أن بريصان ولد في مدينة سوريا هي مدينة الرُّها، وكانت هذه المدينة محكمة من قِبَل سلالة الملوك الأياجرة العرب، حتى أن بريصان عاش في بلاط الملك أبْرَج الثامن الكبير، وتدل المعلومات المتوفّرة أن الثقافة العربية كانت حاضرة بقوة في الرُّها، ما يفتح آفاقاً جديدة للبحث في كون بريصان سورياً - وهذا أمر محسوم - ويمكن أن يكون من أصول عربية ولا يبطل هذا الاحتمال أن ثقافته كانت آرامية، فاللغة الآرامية من عائلة اللغات السامية وتنتمي مع اللغة العربية.

ثانياً: أثبت البحث وجود معلومات متضاربة، بل متناقضة عن بريصان في تاريخ الثقافة السريانية، فظُرر إليه بصفته غنوسيّاً منهاً بالهرطقة لا يمكن قبول أفكاره؛ لأنها تتناقض مع تعاليم الدين المسيحي، كما وُصِّف أنه مُدافع عن الكنيسة السريانية يزدود عن حياضها في مواجهة الهرطقة، وعده مؤرخون معينون منجمًا وساحراً، لكن استشهاد به كبار رجال الكنيسة السريانية في إثبات معلومات تتعلق بانتشار المسيحية في الشرق. وتدلّ هذه المعلومات المتناقضة على وجود رؤية مُضللة عن بريصان؛

ثالثاً: لم يكن حال بريصان في تاريخ الثقافة الإسلامية أحسن من حاله في تاريخ الثقافة السريانية، بل نظر إليه كتاب السير والمؤرخون وعلماء الكلام بصفته زديقاً من أصحاب الاثنين، أي بصفته من القائلين بأصلين للعالم هما النور والظلمة، وفي هذا خلط واضح بين أفكار بريصان وأفكار ماني حتى أن مفكرين عرب مُحدثين تتسم مؤلفاتهم بالمنهجية العلمية مثل علي سامي النشار قدّموا معلومات غير كافية أو غير دقيقة وأحياناً متناقضة عن بريصان، الأمر الذي يدلّ على وجود رؤية مُضللة أيضاً عن هذا الفيلسوف السوري في تاريخ الثقافة الإسلامية.

رابعاً: نجد محاولات حديثة قام أصحابها مؤخراً بتقديم بريصان بصفته أديباً سريانياً كبيراً كان هاجسه الرئيس هو أن يدعو إلى مذهب دينيٍّ بعينه، لكن دلت المعطيات البحثية على أن بريصان فيلسوف سوري لا يميل إلى مذهب دون آخر وتصف أفكاره بالعلمية، أي أنها موجّهة ليس لفئة معينة من الناس، بل للناس أجمعين، ويمكن النظر إلى بريصان بصفته إنساناً متجرداً من أي انتماء إلا الانتماء لإنسانية الإنسان.

خامساً: كشف تحليل المقاطع النصيّة المأخوذة من كتاب بريصان "شائع البلدان" أنه يدافع عن وحدانية الله في مواجهة مُحاوره في الكتاب "عيادة" المرقيوني النزعة، وفي هذا دلالة واضحة على أن بريصان يرفض القول بالاثنيّة في الألوهية، كما أن توحيده

كما كشف استقصاء أفكاره نابع من اللاهوت الطبيعي وليس من اللاهوت المُوحى، ما يدل على تهافت الاتهامات الموجهة ضده من الأطراف كافةً.

سادساً: إن دفاع بريديسان عن وحدانية الله، ليس ناجماً عن الدفاع عن مذهب بعينه؛ وإنما جاء في مواجهة أولئك الذين عاصرهم ويسعون إلى تكثير الآلهة، وفي دفاع بريديسان عن وحدانية الألوهية اتجاه نحو الدفاع عن حقيقة فلسفية في نظره؛ لأن تكثير الآلهة أو نكران الألوهية أمر يتغافى مع العقل السليم عند الإنسان، فـ"برديسان" منافق عن وحدانية الله، ولم يدافع عن مذهب بعينه.

سابعاً: ميز بريديسان بين الكائنات الخاضعة للقانون الطبيعي والإنسان الذي يمتلك حرية الإرادة، ويكون بذلك من أوائل الفلاسفة الذين خاضوا في مشكلة الجبر والحرية، علاوة على إثارته لمشكلة العقل والنفل، وتغليب العقل على النفل، زد على ذلك توجّهه نحو فهم الإنسان واقعياً لا ماهوياً، وستجد هذه المشكلات التي أثارها بريديسان صدىً واسعاً في القافتين المسيحية والإسلامية.

ثامناً: كان بريديسان مؤسساً لأنثروبولوجيا فلسفية، بمعنى أنّ أوائل الذين حدّدوا حقيقة الإنسان استناداً إلى استقراء واقع البشر على اختلاف ملتهم ونحّفهم، ولم يفرضوا ماهيّة مسبقة تتحدد على أساسها إنسانية الإنسان.

تاسعاً: استطاع بريديسان أن يميز بين الطبيعة والقدر، فالطبيعة تتجه بالإنسان نحو أسمى غاياتها، لكن هنا يأتي القدر، فإذاً أن يُنْوَج غایات الطبيعة أو يُدمِّرها، ولم يرجع بريديسان القدر المدمر إلى قوّة غامضة؛ بل إلى الألم والظلم والاستبداد في الحياة؛ لكنه لم يكن اشتراكيّاً، لأنّه وجد في حرية الإرادة عند الإنسان قوّة تستطيع مواجهة القدر نفسه، فيكون بذلك قد سبق الفيلسوف الألماني نيتше صاحب إرادة القوّة بـ 1622 عاماً، إذ إنّ بريديسان مات سنة 222 م، ونيتشه ولد سنة 1844 م، في تأكيد إرادة القوّة عند الإنسان.

المصادر والمراجع:
أولاً: المصادر العربية:

1. ابن العبري، غريغوري وسالمطي، تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت، دون تاريخ.
2. ابن النديم، الفهرست، نشرة غوستاف فلوجل، لايبزغ، 1871.
3. أفرام الأول برصوم، أغناطيوس (بطيريك أنطاكيه وسائر المشرق)، اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والأداب السريانية، قدم له ونشره (المطران) غريغوريوس يوحنا إبراهيم-متروبوليت حلب، دار ماردين، حلب، ط6، 1996، ص:192.
4. أوغسطينس، مدينة الله، المجلد الثاني، نقله إلى العربية: (الخور أسقف) يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، 2002.
5. بدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984.
6. بدوي، عبد الرحمن موسوعة الفلسفة، ج2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984.
7. برصوم، أغناطيوس أفرام الأول (بطيريك أنطاكيه وسائر المشرق على السريان)، كتاب الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة، المجلد الأول، مطبعة السلام، حمص، 1940.
8. حبي، يوسف، كنيسة المشرق 1 الفجر الأصيل، دون ذكر لدار نشر، بغداد، 1988.
9. سليم بسترس، (المطران) كيرلس-(الأب) الفاخوري، هنا-العبيسي البولسي، (الأب) جوزيف، تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، 2001.
10. الشهريستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد، الملل والحلل، المجلد الأول، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت-لبنان، دون تاريخ.
11. شير، أدي (رئيس أساقفة سعد الكلداني الاثوري)، تاريخ كلدوآشور، المجلد الثاني، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، بيروت، 1913.
12. القيصري، يوساپيوس، تاريخ الكنيسة، ترجمة: (القمص) مرقس داود، مكتبة المحبة، القاهرة، ط3، 1998.

13. كامل، مراد، وأخرون، تاريخ الأدب السرياني من نشأته إلى العصر الحاضر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1987.
14. كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، دون تاريخ.
15. الماتريدي السمرقندى، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود، كتاب التوحيد، حققه وقدم له: فتح الله خليف، دار المشرق، بيروت، 1986.
16. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، كتاب التبيه والإشراف، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل 1893.
17. النشار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفى في الإسلام، الجزء الأول، دار المعارف، القاهرة، ط 4، 1966.
18. النشار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفى في الإسلام، الجزء الثاني، نشأة التشريع وتطوره، دار المعارف، القاهرة، ط 4، 1969.
19. ويلتر، ج، الهرطقة في المسيحية، ترجمة: جمال سالم، دار الفارابي، بيروت، 2007.
20. يوسف أليوب، (الأب) برصوم، عبقرية مار أفرام السرياني، المطبعة المارونية، حلب، 1958.

ثانياً: المصادر الأجنبية:

1. Andrade, Nathanael, Bardaisan of Edessa and Memories of Christian Persecution in the Near East, Institute of Classical Studies University of London, 2019.
2. Bardesan, Book of the Laws of Countries, in: SpicilegiumSyriacum: Containing Remains Of Bardesan, Meliton, Ambrose And Mara Bar Serapion. Now First Edited, With An English Translation And Notes, By The Rev. William Cureton, M A. F.R.S. Chaplain In Ordinary Of The Queen, Rector Of St. Margaret 's, And Canon Of Westminster. London: Francis And John Rivington, St. Paul's Churchyard And Waterloo Place. M DcccLv,
3. Burkitt, F. Crawford, Early Eastern Christianity ST. Margaret 's Lectures 1904 On the Syriac-Speaking Church, New York, E.P. Dutton & company, 1904.
4. Denzey, Nicola, Bardaisan Of Edessa, in: A companion to Second-Century Christian "Heretics". Edited AnttiMarjanen& Petri Luomanen, Brill, Leiden.Boston,2005.
5. Possekel,Ute, Bardaisan and Origen on Fate and the Power of the Stars, Journal of Early Christian studies, Volume 20, Number 4, Winter,2012.
6. Shahid, Irvan, Romans And The Arabs: A Prolegomenon To The Study Of Byzantium And The Arabs, Dumbarton Oaks Research library And Collection Washington,D.C,1984.